

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِيِّ

تَأَلِيفُ

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء الثامن

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثامن

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

قبلا : مواجهة ومعابنة ، وقيل إن واحده قبيل كرفع ورغيف - أى قبيل قبيل
وصنفا صنفا أى كل صنف منه على حدة . قال ابن عباس : كل عات مشرد من الجن والإنس فهو شيطان - الإيحاء : الإعلام بالأشياء من طريق خفي سريع كالإيحاء ،
والزخرف : الزينة كالأزهار للرياض والذهب للنساء وما يصرف السامع عن الحقائق

إلى الأوهام - والغرور : الخداع بالباطل - صغى إليه : كرضى يصغى : مال ، ومثله أصغى - ويقال صغى فلان وصغوه معك : أى ميله وهواه كما يقال ضلعه معك ، واقترب المال : اكتسبه ، والذنب : اجترحه - والعدو : ضد الصديق - ويستعمل الواحد والجمع والمذكر والأنثى . قال تعالى : « فَأَيْنَهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السابقة أن مقترحات الآيات الكونية أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول فى دعوى الرسالة ، وأن المؤمنين كانوا يودون لو أجيب اقتراحهم ظنا منهم أن ذلك مفض إلى أيمانهم ، وذكر لهم خطأهم بقوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فأفاد أن سنته فيهم وفى أمثالهم من المعاندين أنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف ما يعتقدون نظروا إليها نظرة إنكار وجحود وحملوها على أنها إما خديعة وسحر ، وإما أنها من أساطير الأولين .

ذكر هنا ما هو أبلغ من ذلك وفصل الإجمال الماضى فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » فأيا أس النبى صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، ولو جاءهم بكل آية وأتى لهم بكل دليل .

الإيضاح

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وسمعوا بأذانهم شهادتهم لك بالرسالة .

(وكلهم الموتى) بأن نحْيِيهم لهم ونجعلهم حجة على صدق ما جئت به من الرسالة .

(وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) أى وجمعنا كل شيء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى وأرسلناه إليهم معاينة ومواجهة ليكون ذلك دليلاً على صحة دعواك

(ما كانوا ليؤمنوا) أى ما كان شأنهم ، ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا - ذلك لأنهم لا ينظرون فى الآيات نظر هداية واعتبار ، وإنما ينظرون إليها نظر العدو إلى من يعاديه ، لا نظر الولى إلى من يعينه ويواليه ، فيخيل إليهم الوهم أن حاجتهم به لا يهديهم إلى سواء السبيل وإنما تسحر به عنولهم وتسلب به ألبابهم .

(إلا أن يشاء الله) أى لكن ان شاء الله إيمان أحد منهم آمن - والمراد أنهم ماداموا على صفاتهم التى هم عليها من اقتراح الآيات فهم لا يؤمنون - لكن ان شاء الله أن يزيلها فعل .

والخلاصة : إن فقد هؤلاء للاستعداد للإيمان ، جار على حسب مشيئته تعالى ككل ما يجرى فى الوجود ، ولو شاء غير ذلك لكان ، ولكنه لا يشاء لأنه تغيير لسنته وتبديل لطباع الانسان .

(ولكن أكثرهم يجهلون) أى ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم سنة الله تعالى فى عباده وانطباقها على الأفراد والجماعات ، لذلك يتمنى بعض المؤمنين لو يؤتى مقترحو الآيات ما اقترحوا ظنا منهم أن ذلك يكون سبب إيمانهم ، مع أن الآيات لا تلزمهم الإيمان ولا تغير طباع البشر فى اختيار ما يترجح لدى كل منهم على حسب ما يؤديه إليه فكره وعقله : ولو شاء الله لخلق الإيمان فى قلوبهم خلقا بحيث لا يكون فيه عمل ولا اختيار - وحينئذ لا يكونون محتاجين إلى الرسل ، كما أنه لو شاء - جعل الآيات مغيرة لطباع البشر وملزمة لهم أن يؤمنوا ، فيكون الإيمان إجلاء وقسرا ، لا اختيارا وكسبا ، ولكنه لم يشأ ذلك بدليل قوله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » قال ابن عباس كان المستهزئون بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة الخزومي ، والعاصي بن وائل السهمي ، والأسود بن يعقوب الزهري ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن حنظلة . أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من أهل مكة وقالوا أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله ،

أو أبعث لنا بعض موتانا حتى نسالهم (أحق مايقول أم باطل؟) أو اتنا بالله والملائكة قبيلا ، فنزلت الآية .

ثم أراد بعدئذ تسلية نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان أن سنته في الخلق أن يكون للنبين أعداء من الجن والانس فقال :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن) أى كما جعلنا هؤلاء ومن لف لفهم أعداء لك جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداء هم شياطين الانس والجن - قال مجاهد وقتادة والحسن : إن من الانس شياطين ومن الجن شياطين - وأيده ابن جرير بما رواه أبو ذر ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له عتب صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الانس والجن ؟ قال قلت يا رسول الله : وهل للانس شياطين ؟ قال نعم » . وجاء في سورة البقرة (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) الآية .

ومعنى جعلهم أعداء للأنبياء : أن سنة الله قد جرت بأن يكون الشرير الذى لا ينفاد للحق كبيرا وعنادا أو جودا على ما تعود - عدوا للداعى إليه من الأنبياء ، وورثهم وناشروا دعوتهم ، وهكذا الحال فى كل ضدين يدعوا أحدهما إلى خلاف ماعليه الآخر ، فى الأمور الدينية أو الاجتماعية ، وهذا مايعبر عنه بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات التى تدعو إلى التنافس والجهاد وتكون العاقبة انتصار الحق ، وبقاء الأمثل الأصلح كما قال تعالى : (فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) فالحياة جهاد لا يثبت فيه إلا الصابرون المجدون ، وليس العمل للأخرة إلا كذلك ، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ) التآساة والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب)

ثم بين بعدئذ أشر ضروب عداء هؤلاء الشياطين ، وهو مقاومة الهداية والدعوة فقال .

(يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) أى يلقى بعضهم إلى بعض القول المموه الذى به يظنون أنهم يسترون قبيح باطلهم ويؤدونه بطرق خفية لا يفتن إلى باطلها كل أحد حتى يغروا غيرهم ويخدعوه ويميلوه إلى ما يريدون .

وأول مثل لهذا الغرور ما وسوس به الشيطان للإنسان الأول وزوجه الكريم (آدم وحواء) فزين لهما الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها كما قال :
(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) .

وهكذا يوسوس شياطين الإنس والجن لمن يجترحون السيئات ويرتكبون المعاصى فيزينون لهم ما فيها من عظيم اللذة والإطلاق والحرية ، ويمنونهم بعفو الله ورحمته ، وشفاعة أنبيائه وأوليائه حتى ليقترنهم أحدهم بقوله :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد ربا غفورا

(ولو شاء ربك مافعلوه) أى ولو شاء ربك ألا يفعلوا هذا الغرور مافعلوا ، ولكنه لم يشأ أن يغير خلقهم أو يجبرهم على خلاف ما تزينه لهم أهواؤهم ، بل شاء أن يكون الإنس والجن على استعداد لقبول الحق والباطل والخير والشر ، وأن يكونوا مختارين سلوك أى الطريقين كما قال « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

(فذرهم وما يفترون) من الكذب ويخترعون من الإفك ، صرفا للناس عن سبيل الحق ، وسعيا فى إضلالهم وصددهم عن طريق الرشاد ، وامض لشأنك كما أمرت فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء ، وسترى سنتنا فيهم وفى أمثالهم ، وقد أراه عاقبة أمرهم فأهلك المستهزئين بالقرآن ونصره على أعدائه المشركين (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) .

(ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى يوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المموه من القول ليغروا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنهم عن دينهم ، ولتيل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، لأنه الموافق لأهوائهم ؛ إذ هم يميلون إلى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ، ومموهات الأباطيل .

أما الذين ينظرون إلى عواقب الأمور فيعلمون بطلانها ، فلا تغرهم تلك
الزخارف ولا تعجبهم تلك الأباطيل .
(وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون) أى وليترتب على ذلك أيضا أن يرضوه
لأنفسهم بلا بحث ولا تمحيص فيه ، وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصي ما هم
مكتسبون بغرورهم به ورضاهم عنه .

أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتَّبَعِيَ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا؟
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَنَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) .

شرح المفردات

الحكم : من يتحاكم إليه الناس ویرضون حكمه - مفصلا : مبينا فيه الحق
والباطل والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأحكام - الممترين : المترددين الشاكين ،
والكلمة هنا : القرآن ، وتام الشيء ، كما قال الراغب : انتباهوه إلى حد لا يحتاج معه
إلى شيء خارج عنه ، وتامها هنا : أنها كافية وافية في الإعجاز والدلالة على صدق
الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصدق : يكون في الأخبار ومنها المواعيد ، والعدل :
يكون في الأحكام . والتبديل : التغيير بالبدل .

المعنى الجملى

بعد أن بين في سابق الآيات ، أن الذين اقترحوا الآيات الكونية ، وأقسموا
بأنهم يؤمنون إذا جاءتهم - كاذبون في أيمانهم ، وأنهم ما هم إلا من شياطين الإنس
الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، وأن دأبهم صرف الناس عن
اتباع الحق ، وتزيين الباطل ، فيغتر بهم من لا يؤمن بالآخرة ويرضى بهم
لموافقهم أهواءه .

ذكر هنا الآية الكبرى ، وهي القرآن الكريم فهو أقوى الأدلة على رسالة نبيه من جميع ما اقترحوا ، ومنزله هو الذي يجب الرجوع إليه في أمر الرسالة ، واتباع حكمه فيها ، دون أولئك الضالين المبطلين ، من شياطين الإنس والجن .

الإيضاح

(أنغير الله أبتغى حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى ليس لى أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزهُ ؛ لأنه لأحكم أعدل من حكمه ، ولا قائل أصدق منه ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، فيه كل ما يصح به الحكم ، وإزاله مشتملا على الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع وغيرها على لسان رجل منكم هو أكبر دليل وأظهر آية على أنه من عند الله ، لا من عنده ، كما جاء في قوله : « فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ » .

والخلاصة — إنكم تتحكمون في طلب المعجزات لأن الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد حصل بوجهين :

(١) إنه أنزل إليكم الكتاب المفصل المشتمل على علوم كثيرة ، بأسلوب قد عجز الخلق عن معارضته ، فيكون هذا دليلا على أن الله قد حكم بنبوته .

(٢) ما ذكر بعد ، من أن التوراة والإنجيل تشتملان على الآيات الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول حق وأن القرآن كتاب حق من عند الله .

(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى إن أنكر هؤلاء المشركون أن يكون القرآن حقا وكذبوا به ، فالذين أعطيناهم الكتب المنزلة من قبله كعلماء اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .

ذاك أنهم يعلمون أنه من جنس الوحي الذي نزل على أنبيائهم وأن أوسع البشر علما لا يستطيع أن يأتي بمثله — إلى أن كتبهم تشتمل على بشارات بذلك النبي لم تكن

لتخفى على علمائهم في عصر التنزيل كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .
وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرتهم من أهل الكتاب فأمنوا ، وأنكر بعضهم الحق وكنتمه بغيا وحسدا فباء بالخسران المبين .

(فلا تكونن من الممتريين) الخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره على طريق التعريض كقوله : « فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وتقدم الكلام على مثل هذا ، وإماله والمراد النهي عن الشك في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق - أو الخطاب لكل من يتأتى منه الامتراء على مثال قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ » .

(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول في غرض واحد ، فإذا كتب أحد أو خطب في موضوع ما قيل كتب أو قال كلمة ، وكانوا يسمون القصيدة كلمة ، وقالوا كلمة التوحيد يعنون (لا إله إلا الله) والمراد بها هنا ما أريد بها في قوله : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

والمعنى — وتمت كلمة ربك فيما وعدك به من نصرتك ، وأوعده المستهزئين بالقرآن من الخذلان والهلاك ، كما تمت في الرسل وأعدائهم من قبلك كما قال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .
وتمامها صدقا هو حصولها على الوجه الذي أخبر به ، وتمامها عدلا باعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون ، وللمؤمنين بما يستحقون أيضا ، وقد يزدون على ذلك فضلا من الله ورحمة ، والمراد بالخبر هنا تأكيد ما تضمنته الآيات من تسليية النبي صلى الله عليه وسلم عن كفر هؤلاء المعاندين وإيذائهم له ولأصحابه ، وإيثاس الطامعين من المسلمين في إيمانهم حين إيمانهم الآيات المقترحة .

وخلاصة المعنى — كما أن سننى قد مضت بأن يكون لارسل أعداء من شياطين
الإنس والجن ، تمت كلتى بنصر المرسلين وخذلان الأعداء المفسدين .

(لا مبدل لكلماته) أى إن كلمة الله فى نصرته وخذلان أعدائه قد تمت
وأصبحت واقعة نافذة حتما لا مرد لها لأن كلمات الله لا مبدل لها ، ولا يستطيع أحد
من خلقه أن يزيلها بكلمات أخرى تخالفها وتمنع صدقها على من وردت فيهم ، كأن
يجعل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا . أو بصرفهما وتحويلهما عن الموعد بالثواب
أو الموعد بالعقاب إلى غيرها ، أو يحول دون وقوعهما .

والخلاصة - إنه لا مغير لما أخبر عنه من خبر أنه كائن فيبطل مجيئه ، وكونه
على ما أخبر جل ثناؤه .

(وهو السميع العليم) أى إنه تعالى سميع لتلك الأقوال الخادعة عنهم ، عليم
بما فى قلوبهم من النقايد والنيت ، وبما يقتربون من الذنوب والسيئات .

وَإِنْ تُطِيعُوا كَثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ
يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ
عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ ،
وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)
وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأَنْثَمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَنْثَمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا
كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفَسَقُوا، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١).

المعنى الجملى

بعد أن أجاب سبحانه عن شبهات الكفار وبين بالدليل صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - ذكر هذا أنه لا ينبغي الالتفات إلى ما يقوله هؤلاء الجهال لأنهم يسلكون سبيل الضلال والإضلال ، ويتبعون الظنون الفاسدة الناشئة من الجهل والكذب على الله ، فلا ينبغي الركون إليهم والعمل بآرائهم .

وفي سياق الحديث ذكر أن أكثر الأمم في عهد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا ضالًّا لا يغلب عليهم الشرك ، بعد أن أبان ضلال مشركى العرب ومن على شاكتهم في عقائدهم ، ثم أردف ذلك ، ببيان مسألة هامة لها خطرها وهي من أصول الشرك ، تلك هى مسألة الذبائح لغير الله .

الإيضاح

(وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) أى وإن تطع أحدا من الكفار بمخالفة ما شرعه الله . وأودعه كلماته للنزلة عليك ، يضلوك عن الدين الحق ، وعن نهج الصواب ، فلا تتبع أنت ومن اتبعك حكما غير الذى أنزل إليك من الكتاب مفصلا ، فهو الهداية التامة الكاملة ، فادع إليه الناس كافة .

(إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون) الخرص : القول بالظن قول من لا يستيقن ، أى إن هؤلاء لا يتبعون فى عقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى يرجحه له أهواؤهم - وما هم إلا يخرصون فى ترجيح بعض منها على بعض ، كما يخرص أرباب النخيل والكروم ثمرات نخيلهم ، وأعنابهم ، ويقدرّون ما تجود به من التمر والزبيب تخميناً وحدثاً دون تحقيق لذلك ، ولا برهان على ما يقولون فهم يكذبون

على الله فيما ينسبونه إليه من اتخاذ الولد ، وجعل عبادة الأوثان ذريعة إليه ، وتحليل الميتة والبهائم ونحو ذلك .

وتاريخ تلك العصور يؤيد الحكم القطعى الذى فى الآية من ضلال أكثر أهل الأرض ، وانبياءهم للخرص والظن ؛ فأهل الكتاب قد تركوا هداية أنبيائهم ، وضلوا ضلالا بعيدا ، وكذلك الأمم الوثنية ، التى كانت أبعد بعيدا عن هداية الرسل والأنبياء .

وهذا من علم الغيب الذى أوتيته ذلك النبى الأمى ، وهو لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا البذر اليسير من شئون الأمم المجاورة ببلاد العرب . ثم أكد الجملة السابقة زيادة فى التحذير فقال :

(إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك الذى رباك وعلمك بما أنزله إليك ، وبين لك ما لم تكن تعلم من الحق ومن شئون الخلق - هو أعلم منك ومن سائر عبادته ، بمن يضل عن سبيله القويم وبمن هو من المهتدين ، السالكين صراطه المستقيم ، ففوض أمرهم إلى خالقهم فهو العليم بالضل والمهتدى ، ويجازى كلا بما يليق بعمله .

وبعد أن أبان لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أكثر أهل الأرض يضلون من أطاعهم ، لأنهم ضالون خراصون ، وأنه تعالى هو العليم بالضالين والمهتدين - أمر الله رسوله وأتباعه بمخالفة أولئك الضالين ، من قومهم ومن غيرهم فى مسألة الذبائح وترك جميع الأصار والآثام ، فقال :

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) أى إذا كان حال أكثر هؤلاء الناس ما بينته لكم من الضلال فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره ، إن كنتم بآياته التى جاءكم بالهدى والعم مؤمنين ، وبما يخالفها من الضلال والشرك مكذبين .

وقد كان مشركو العرب وغيرهم من أرباب الملل والنحل يجمعون الذبائح من أمور العبادات ويقرنونها بأصول الدين والاعتقادات فيتعبدون بذبح الذبائح لألهتهم ومن قدسوا من رجال دينهم ، ويهتئون لهم عند ذبحها ، وهذا شرك بالله ، لأنه عبادة يقصد بها غيره سواء سموه إلهاً أو معبوداً أو لم يسموه ، وقد وقع كثير من المسلمين في مثل ما كان عليه أولئك الضالون المشركون من مشركى العرب وسواهم فذبحوا باسم بعض الأولياء والصالحين ، وسيبوا لهم السوائب ، فتراهم يندرون العجول وانحراف للسيد البدوى وغيره من أرباب الأضرحة والقبور ممن يستشفعون بهم إلى ربهم في زعمهم ، وهذا شرك صريح .

(وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) يقولون مالك ألا تفعل كذا ، على معنى وأى شيء يمنعك من ذلك ؟ والمراد هنا وأى شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟

(وقد فصل لكم ما حرم عليكم) أى وقد فصل لكم ما حرمه عليكم وبينه بما سيأتى فى قوله : « قُلْ لَا أَحَدٌ فِيمَا أُوْحِيََ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » ومعنى أهل غير الله به أى ذكر عليه اسم غيره عند ذبحه كالأصنام والأنبياء والصالحين الذين وضعت التماثيل ذكرى لهم .

(إلا ما اضطررتم إليه) أى إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع إلا المحرم ، فحينئذ يزول التحريم . والقاعدة الشرعية « الضرورات تبيح المحظورات » والقاعدة الأخرى « الضرورة تقدر بقدرها » فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة ويتق به الهلاك لا أكثر منه .

(وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) أى وإن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم الزائفة وشهواتهم الفاسدة من غير علم منهم بصحة ما يقولون ، ولا برهان على ما فيه يجادلون ، اعتداء وخلافا لأمر الله ونهيه وطاعة للشياطين ،

كعمرو بن لُحى وقومه . الذين اتخذوا البحائر والسواثب ، وأحبوا أكل الميتة ، وما أهل به لغير الله بذلك اسم ذلك الغير من نبي أو ولي أو وثن أو صنم .

وأصل عبادة الأوثان أنه كان فى القوم الذين أرسل إليهم نوح رجال صالحون فلما ماتوا وضعوا لهم أنصاباً ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم ، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم ، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها لكنهم حفظوا تكريمها ، والتبرك بها ، تدنينا وتوسلاً إلى الله ، فكان ذلك عبادة لها وتسلسل فى الأمم بعدهم ، وقد روى البخارى عن ابن عباس : إن المصنفين يبنون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التى عبدوا بها غير الله كالتوسل به ودعائه ، وطلب الشفاعة منه ، وذبح القرابين باسمه ، والطواف حول تمثله أو قبره والتمسح بأركانها ، وكل ذلك شرك فى العبادة شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقرب بهم إليه .

وقد انتشرت هذه الشبهات الوثنية فى أرباب الكتب الإلهية ، وأولوا لأجلها النصوص القطعية وأنكروا تسمية ذلك عبادة ، أو أن هذه العبادة إذا كانت لغير الله لجعله واسطة ووسيلة إليه لاتعد شركاً به ، وما الشرك فى العبادة إلا هذا . (إن ربك هو أعلم بالمعتدين) أى إن ربك الذى أرشدك وهداك هو أعلم منك ومن سائر خلقه بالمعتدين الذين يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه عليهم . أو يتجاوزون حد الضرورة عند وقوعها وفى هذا من التهديد والتخويف ما لا يخفى .

وفى الآية إيماء إلى تحريم القول فى الدين بالتقليد لأن ذلك من اتباع الأهواء بغير علم ، إذ المقلد غير عالم بما قلده فيه .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) الإثم لغة ما قبح ، وشرعاً ما حرمه الله ، والله لم يحرم على عباده إلا ما كان ضاراً بالأفراد فى أنفسهم أو فى أموالهم أو فى عقولهم أو فى أعراضهم أو فى دينهم ، أو ضاراً بالجماعات فى مصالحهم السياسية أو الاجتماعية . والظاهر منه ما تعلق بأفعال الجوارح ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب ، كالسكبر والحسد وتدبير المكائد الضارة والشرور للناس ، ومنه الاعتداء فى أكل

الحرم الذى يباح للمضطر أن يتجاوز فيه حد الضرورة كما بينه الله بقوله : « فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهذه الجملة من جوامع الكلم والأصول العامة في تحريم الآثام ، ومن ثم قال ابن الأنباري : المراد بذلك ترك الإثم من جميع جهاته كما نقول ما أخذت من هذا مال لا قبيل ولا كثيرا تريد ما أخذت منه بوجه من الوجوه .

(إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) أى إن الذين يكسبون نوعا من الآثام الظاهرة أو الباطنة سيقنون جزاء إثمهم وعاقبة كسبهم للذنوب التى أفست فطرتهم ودست نفوسهم بإصرارهم عليها ومعاودتها المرة بعد المرة .

أما الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعملون ، فهؤلاء يتوب الله عليهم ويمحو تأثير الإثم فى قلوبهم ، بما يفعلونه من الحسنات كما قال تعالى : « إِنَّ الْخِصَمَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وبذلك تعود نفوسهم زكية وتلقى ربها سليمة نقية من أدران السوء التى كانت قد وقعت منها لما .

واتفق المفسرون على أن التوبة تمحو الخطيئة : أى إن التوبة الصحيحة بالعزم الصادق والندم على مافات تمحو آثار الذنب الماضى ، فإن الله قد يعفو عن المذنب فيغفر له ما فرط منه من الذنوب كما دل : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

ثم صرح الله تعالى بما فهم من الأمر السابق ، بقوله : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) لشدة العناية بهذا الأمر الذى هو من أظهر أعمال الشرك فقال :

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) أى ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء فى الآية الأخرى « أَوْ فَسَقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » .

[تنبيه] قال مالك كل ذبح لم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكـ

عمدا أو سهوا ، وقال أبو حنيفة إن ترك الذكرك عمدا حرم ، وإن ترك نسيانا حل ، وقال الشافعى : متروك التسمية عمدا أو سهوا حلال إذا كان الذابح مسلما .
(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون)
أى وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ليوحون إلى أوليائهم بالسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها فجاريتهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعمد لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقترب التوسل إليه زلفى ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية . وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل كل هذه الذبائح لا يكون مشركا وكذلك من يأكل الميتة ، بل يكون عاصيا إن لم يكن مضطرا .

قال عكرمة : وإن الشياطين يعنى مرده الجوس ، نيوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ليصل إلى نبي الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه الجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكتابة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية ثم قال : (وإن أطعتموهم) يعنى فى استحلال الميتة (إنكم لمشركون) قال الزجاج وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشرك ، لأنه أثبت مشرعا سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله . وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشارا بقدمه فهو كذبح العقيدة لولادة المولود . ومثل هذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو الراجح الذى عليه الماعول .

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
 كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا
 لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعته ، الأكبر واحد من أكبر أو كبير : وهو الرئيس ، والجرمون :
 فاعلو الإجرام ، والإجرام : هو ما فيه الفساد والضرر من الأعمال ، والقريّة : البلد الجامع
 للناس (العاصمة في عرف هذا العصر) وقد تطلق بمعنى الشعب أو الأمة . ويراد فيها
 البلد في اصطلاح هذا العصر فيقولون ثروة البلد ، مصاحبة البند ويريدون الأمة ،
 والمكر : صرف المرء غيره عما يريد به إلى غيره بضرب من الحيلة في الفعل ، أو الخلابة
 في القول .

المعنى الجملي

بعد أن أبان الله سبحانه وتعالى أن أكثر أهل الأرض ضالون متبعون للظن
 والحدس ، وأن كثيرا منهم يضلون غيرهم بأهوائهم بغير علم ، وأن الشياطين منهم
 العانين عن أمر ربهم يوحون إلى أوليائهم ما يجادلون به المؤمنين ليضلّوهم ويحمّلوهم
 على اقتراف الآثام ، ويحمّلوهم أيضا على الشرك بالله بالذبح وغيره والتوسل به إليه وهو
 عبادة له - ضرب هنا مثلا يستبين به الفرق بين المؤمنين المهتدين للاقتداء بهم ،
 والكافرين الضالين للتنفير من طاعتهم والحذر من غوايتهم مع ذكر السبب
 في استحسان الكافرين لأعمالهم وهوتزيين الشيطان لهم ما يعملون ، ومن ثم انغمسوا
 في ظلمات لا خلاص لهم منها ، وأصبحوا في حيرة وتردد على الدوام .

الإيضاح

(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟) أى أنتم أيها المؤمنون كأولئك الشياطين أو كأوليائهم الذين يجادلونكم بما أوحوه إليهم من زخرف القول الذى غروهم به ، ومن كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نورا يمشى به في الناس وهو نور القرآن المؤيد بالحجة والبرهان ، يمشى به في الناس على بصيرة من أمر دينه وآدابه ومعاملاته . للناس كمن مثله المبين لحاله مثل السائر في ظلمات بعضها فوق بعض (ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر) وهو ليس بخارج منها لأنه يبقى متحيرا لا يبتدى إلى وجه صلاحه فيستولى عليه الخوف والفرع والعجز والحيرة الدائمة . وكذلك الخابط في ظلمات الجهل والتقييد الأعمى وفساد الفطرة ليس بخارج منها لأنها قد أحاطت به وألقتها نفسه فلم يعد يشعر بالحاجة إلى الخروج منها إلى النور ، بل ربما شعر بالألم من هذا النور المعنوى كما يألَمُ الخفَّاس بالنظر إلى النور الحسى .

والخلاصة : إنه ينبغي المسلم أن يكون حيا عالما على بصيرة في دينه وأعماله وحسن سيرته ، وأن يكون القدوة والأسوة للناس في الفضائل والخيرات والحجة على فضل دينه على سائر الأديان .

(كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا التزيين الذى تضمنه المثل السابق ، وهو تزيين نور الهدى والدين لمن أحياه الله حياة عالية وتزيين ظلمات الضلال والكفر لموتى القلوب ، قد زين للكافرين ما كانوا يعملون من الآثام كعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وذبح القرابين لغير الله وتحريم ما لم يحرمه الله وتحليل ما حرمه بمثل تلك الشبهات التى تقدم ذكرها .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرمها ليذكروا فيها) أى وكما أن أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية أكبر مجرمها ليذكروا فيها ، فزين لهم على

حسب سنننا في البشر سوء أعمالهم في عدوان الرسل ومقاومة الإصلاح انبعا للهوى ، واستكبارا في الأرض .

ومجمل القول : إن سنة الله في الاجتماع البشري قد قضت أن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة بعث فيها رسول أو لم يبعث — زعماء مجرمون يمحرون بالرسول وبسائر المصلحين من بعدهم ، وهكذا كان الحال في أكثر أكابر الأمم والشعوب ولا سيما في العصور التي تكثر فيها المضامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء فتراهم يمحرون بالأفراد والجماعات ليحفظوا رياستهم ويعزوا كبريائهم كما يمحرون بغيرهم من الساسة والرؤساء إرضاء لمطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم بين الشعوب والدول .

والمراد بالأكابر المجرمين من يقاومون دعوة الإصلاح ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم ، وكان أكثر أكابر مكة كذلك ، وتخصيص الأكابر بذلك لأنهم أقدر على المكر واستتباع الناس .

(وما يمحرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) أي وما يمحرون أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل في عصرهم ودعاة الإصلاح من ورثتهم من بعدهم — إلا بأنفسهم . وهكذا شأن من يعادون الحق والعدل ليبقى لهم ما هم عليه من فسق وفساد ، لأن سنة الله قد جرت بأن عاقبة المكر السيئ تحقيق باطله في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فبما ثبت في القرآن من نصر المرسلين وهلاك الكافرين المماندين ، ومن علو الحق على الباطل ، ومن هلاك القرى الفاتمة ، وبما أيده الاختبار ودلت عليه نظم العمران من أن تنازع البقاء يقضى ببقاء الأمثل والأصلح « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وقد أشارت الآيات إلى أن هذا كان سنة الله في الأولين فقال : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » أي فالذين كانوا يمحرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصا على رياستهم وفسادهم ، لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم

تحقيق بهم لجهنم بسنن الله فى خلقه وهم خليقون بهذا الجهل . وأما فى الآخرة فالأمر واضح والنصوص متظاهرة على ذلك .

وهذه الجملة متضمنة لوعيد الماكرين من مجرمى أهل مكة ، وفيها وعد وتسليية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ،
 اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ
 وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ
 يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا
 كَأَنَّما يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَذْكُرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ (١٢٧) .

شرح المفردات

الصغار والصَّغَر (بالتجريك) : الذل والهوان جزاء الكفر والطغيان ، وهو قلة
 فى الأمور المعنوية . والصَّغَر (بزنة غلب) قلة فى الأمور الحسية والصاغر : الراضى
 بالمنزلة الدنية . وشرح الصدر : توسعته ، ويراد به جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها
 وخلوها مما يكدرها . والضيق (بالتشديد والتخفيف) كهين وهين : ضد الواسع .
 والحرج : شديد الضيق من الحرجة وهى الشجر الكثير المتتف بعضه ببعض بحيث
 يصعب الدخول فيه . روى أن عمر سأل أعرابيا من بنى مدلج عن الحرجة فقال :

هى الشجرة تكون بين الأشجار لاتصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شئ من الخير . والرجس : كل ما يستقذر حسا أو عقلا أو شرعا ، وهو مالاخير فيه ، أو هو اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . صراط ربك : أى طريقه الذى ارتضاه وسنته التى اقتضتها حكمته ، والمستقيم : مالا اعوجاج فيه ولا زيف ، دار السلام : هى الجنة ، أو هى دار السلامة من المنغصات والكروب ، وليهم : أى متولى أمورهم وكافهم كل ما يهمهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن سنته فى البشر قضت بأن يكون فى كل شعب أو أمة زعماء مجرمون يمحرون بالرسول وبدعاة الإصلاح ، ويقاومون دعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا - ذكر هنا أن هذه السنة تنطبق أشد الانطباق على مجرمى أهل مكة الذين تعنتوا أشد التعنت فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات ، ثم ذكر بعد هذا سنة الله فى المستعدين للإيمان وغير المستعدين مع ظهور الحق فى نفسه .

وقد نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أحق بها من محمد فإنى أكثر منه مالا وولدا .

الإيضاح

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن تؤمن حتى تاتى مثل ما أتى رسل الله) أى إذا جاءت أولئك المشركين آية بينة من القرآن تتضمن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من التوحيد والهدى قالوا لا تؤمن إلا إذا أتى على يديه من الآيات الكونية التى يؤيده الله بها ، مثل ما أتى رسل الله كفلق البحر لموسى وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى .

وقال ابن كثير أى حتى تأتي الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل .
وهذا بمعنى قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَأُكَةٌ
أَوْ نَرَى رَبَّنَا » الآية .

وخلاصة ذلك — إنهم لا يؤمنون بالرسالة إلا إذا صاروا رسلا يوحى إليهم .
وقد رد الله عليهم جهالتهم و بين لهم خطأهم بقوله :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح
لها من خلقه وهذا كقوله : حكاية عنهم « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ
مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » الآية . يريدون لولا نزل هذا
القرآن على رجل عظيم مبجل فى أعينهم من القريتين مكة والطائف ، ذاك أنهم
— جازاهم الله بما يستحقون — كانوا يزدرون الرسول صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا
وعنادا واستكبارا كما قال تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْكُمْ
إِلَّا هُزُوعًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ وَهُمْ يَذِكِّرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ »
وهم مع ذلك كانوا يعترفون بشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ومنشئه وكانوا يسمونه
بالأمين ، فكان ينبغي أن يكون فى ذلك مقنع لهم بأنه أولى من أولئك الأكابر
الحاسدين له بالرسالة ، وبكل ما فيه الكرامة ، ولكنه الحسد والبغى والتقليد .
كل أولئك كان الباعث لهم على تلك الأقوال وعمل هاتيك الأفعال فى
عداوته ومعاندته .

والخلاصة — إن الرسالة فضل من الله يمنحه من يشاء من خلقه ، لا يناله أحد
بكسب ولا يتصل إليه بسبب ولا نسب ولا يعطيه إلا من كان أهلا له لسلامة
القطرة ، وطهارة القلب ، وحب الخير والحق .

(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)
أى سيصيب المجرمين لما كرم الذين قد قضت سنة الله أن يكونوا زعماء فى كل

شعب دب فيه الفساد ، عذاب شديد مكان ما تمنوه وعلقوا به آمالهم من عز النبوة وشرف الرسالة .

ومعنى كونه - من عند الله - أنه مما اقتضاه حكمه وعدله وسبق به تقديره ؛ فإن ما هو ثابت عند الله في حكمه التكويني الذي دبر به نظام الخلق ، وحكمه الشرعي التكليفي الذي أقام به العدل والحق -- يقال إنه من عند الله ويكون هذا جزاء لهم على استكبارهم عن الحق في الدار الدنيا كما قال تعالى : « كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . فَاَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

وعذاب الأمم في الدنيا بذنوبها مطرد وعذاب الأفراد لايطرد وإن كانوا من المجرمين الماكرين . وقد عذب الله في الدنيا أكابر مجرمي أهل مكة الذين تصدوا لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والكيد له كالحنسة المستهزئين الذين قد سبق الكلام فيهم فقتل منهم من قتل في بدر ، ولحق الصغار والهوان بالباقيين .

وقد سبقت هذه الجملة وعيادها لهم وبياننا لسوء عاقبتهم لحرمانهم من الاستعداد للإيمان ، وقفي ذلك بالمقابلة بينهم وبين المستعدين له فقال :

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أى من كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذى هو دين الفطرة ، والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك فى نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما أتى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالاته ، فتتوجه إليه إرادته ويدعن له قلبه ، بما يرى من ساطع النور الذى يستضيء به لبه ، وباهر البرهان الذى يتملك نفسه .

«وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ، قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح ، قالوا فهل لذلك من أمانة

يعرف بها ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود . والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

(ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) أى إن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في صدره ضيقا أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس ، وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتلالها ويكون مثله مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء ، إذ يشعر بضيق شديد في التنفس ، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء ولم يستطع سبيلا إلى البقاء فإن هو قد بقى فيها مات اختناقا .

وخلاصة ذلك — إن الله ضرب مثلا لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه ، بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك . إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كتبها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرنا ، ونقدم فن الطيران الآن علم الطيران بالتجربة صدق ما جاء في كتابك ، ودل على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى في مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة في الهواء من الطبقات التى هى أسفل منها ، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحيانا إلى استعمال جهاز التنفس لمساعدتهم على السير في تلك الطبقات .

وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جليلاً لأنهم لم يهتدوا لسرها ، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها على حسب ما أثبتته العلم ، ومن هذا صح قولهم ؛ الدين والعلم صنوان لا عدوان ، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

(كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) أى كما جعل الصدر ضيقاً حرجاً بالإسلام على هذا النحو فى سنة الله وتقديره بما نقدم ذكره من الأسباب ، يجعل الرجس على الذين يعرضون عن الإيمان ، فيظهر أثر ذلك فى تصرفاتهم وأعمالهم فيكون غالبها قبيحاً سيئاً فى ذاته أو فيما بعث عليه من قصد ونية ، لأن الإيمان الذى اجتنبوه هو الذى يصد عنه ويظهر الأنفس منه .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) أى وهذا الإسلام الذى يشرح الله له صدر من يريد هدايته ، هو صراط ربك الذى بعثك به ، وبين لك أصوله وعقائده بالبراهين الواضحة والبيّنات الظاهرة ، حال كونه مستقيماً فى نظر العقول الراجحة والفطر السليمة ، بعيداً من الإفراط والتفريط ، فلا اعوجاج فيه ولا التواء ، بل هو السبيل السوى ، وما عداه من الملال والنحل فهو معوجّ متو بما فيه من زيغ وفساد وخروج عن الجادة التى يؤيدها العقل وتستند إلى النقل كما قال على " كرم الله وجهه فى نعت القرآن : هو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهو الذى ذكر الحكيم .

(قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) أى قد وضعنا آياته وفسرناها لقوم يتذكرون ما باغوه منها كلما عرضت الحاجة إليه فيزدادون بذلك يقيناً ورسوخاً فى الإيمان ، كما يزدادون موعظة تبعثهم على الإذعان والعمل الصالح .

(لهم دار السلام عند ربهم) أى لهؤلاء السالكين صراط ربهم المستقيم . دار السلام عنده يسلكهم صراطه الموصل إليه بما أسلفوا من عمل ، إذ هم قد اقتفوا آثار الأنبياء وطرائقهم وسلكوا من الاعوجاج فوصلوا إلى دار السلام .

(وهو وليهم بما كانوا يعملون) أى إنه تعالى متولى أمورهم وكافهم كل مايعنيهم جزاء على صالح أعمالهم التى تركى نفوسهم وتصلح حالهم فى الدنيا والآخرة ، فيتولى رعايتهم وتوفيقهم فى الدنيا ، وينيلهم الثواب ويدخلهم جنات النعيم بمنه وكرمه .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ
وَقَالَ أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) .

شرح المفردات

المعشر والنفر والقوم والرھط : الجمع من الرجال فحسب ، ولا واحد لها من لفظها ،
وقال الليث : المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين ومعشر الكافرين ،
ويطلق على الإنس والجن بدليل الآية ، واستكثر : أخذ الكثير ، يقال استكثر من
الطعام : أكل كثيرا ، وأوليائهم : هم الذين تولوهم أى أطاعوهم فى وسوستهم وما آقوه
إليهم من الخرافات والأوهام ، والاستمتاع بالشئ : جعله متاعا ، والمتاع ما ينتفع به
انتفاعا طويلا ممتدا وإن كان قليلا ، وبلغنا أجلنا : أى وصلنا يوم البعث والجزاء ،
والمثوى : مكان الثواء ، أى الإقامة والسكنى ، والخلود : المكث الطويل غير
المؤقت بوقت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه من العذاب للمجرمين ، وما أعدّه من الثواب
والنعيم فى دار السلام للمؤمنين ، إثر بيان أحوالهم وأعمالهم التى استحق بها كل
منهما جزاءه .

تقى على ذلك بذكر ما يكون قبل هذا الجزء من الحشر وبعض ما يكون في يومه من الحساب ، وإقامة الحجة على الكفار ، وسنة الله في إهلاك الأمم .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى ويوم يحشرهم جميعا يقول لمعشر الجن منهم : يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس أى استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم كما قال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ » .

والمراد أنهم استتبعوهم بسبب إضلالهم إياهم فحشروا معهم ، لأن المكلفين يحشرون يوم القيامة مع من اتبعوهم في الحق والخير ، أو في الباطل والشر .

(وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى وقال الذين تولوا الجن من الإنس فى جواب الرب تعالى : يا ربنا تمتع كل منا بالآخر بما كان للجن من اللذة فى إغوائنا بالأباطيل وأهواء الأنفس وشهواتها ، وبما كان لنا فى طاعتهم ووسوستهم من اللذة فى اتباع الهوى والانغماس فى الذات ، قال الحسن البصرى : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس اه .

وفى الآية إيماء إلى أن كل إنسى يوسوس له شيطان من الجن بما يزين له من الباطل وبما يغريه من الفسق والفجور .

فهذا الخلق الخفى الذى هو من جنس الأرواح الشريرة يلابسها بقدر استعدادها للباطل والشر ويقوى فيها داعيتهما كما تلبس جنّة الحيوان الخفية (الميكروبات) الأجساد الحيوانية فتفسد مزاجها وتضيقها بالأمراض والأدواء ، فقد أثبت الطب الحديث دخول النسم (النسم لغة : كل ما فيه روح) الحية (الميكروبات) فى الأجسام، وعرفت الطرق والمداخل الخفية لدخولها بما استحدثت من المناظير (الميكروسكوبات)

التي تكبر الصغير حتى يرى أكبر من حقيقته بألوف الأضعاف ، فأمكن أن نعرف أن في الأرض أنواعا من النسم الخفية تدخل الأجسام من خراطيم البراغيث أو البعوض أو القمل ، أو مع الماء والطعام ، وتنمو فيها بسرعة مذهشة فتولد ألوف الألوف ، ومتى تكاثرت ولدت الأمراض والأوبئة القاتلة ، ولو كان قد قيل مثل هذا لأكبر أطباء المصريين القدامى أو لليونان أو العرب لعدوه نوعا من الشعوذة والسحر أو ضربا من التخيل والجنون .

وإذا كان هذا الاتصال الخفى قد ثبت في الأجساد بعد آلاف السنين فلا عجب أن يثبت مثل ذلك في الأرواح ، وأمرها أخفى من الأجساد ، والكتاب والسنة مليئان بهذا ، فقد جاء في الحديث ما يدل على وجود هذه الجرائم (الميكروبات) التي لم يثبتها الطب إلا حديثا ، وكفى بهذا معجزة لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن الله أوحى إليه بنظريات لم يثبتها العلم إلا بعد ذلك بأربعة عشر قرنا ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « تنكبوا الغبار فإن منه تكون النسمة » وقال عمرو بن العاص : انقوا غبار مصر فإنه يتحول في الصدر إلى نسمة ، ولو أن هذا الأثر قيل لغير المتمدنين وفسر لهم هذا التفسير قبل اختراع المناظير لكان فتنه للناس وزادهم نفورا مما جاء به الرسول ، واسكن في كل يوم يثبت العلم نظريات جديدة تكون نعم العون على صدق ما جاء به الرسول ، وتلقى نورا على الناس ينظرون به تلك الدرر الغوالي المبهوثة في القرآن والحديث وآثار الصدر الأول من المسلمين .

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) أى ووصدنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذي حددته لنا وهو يوم البعث والجزاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا فاحكم فينا بما تشاء وأنت الحكم العدل .

ومقصدهم من هذا الإخبار إظهار الحسرة والندامة على ما كان منهم من التفريط في الدنيا وتفويض الأمر إلى ربهم العليم بحالهم ، ولم يذكر هنا قول التبويعين من الشياطين وحكاه في آى أخرى فقال في الفريقين « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ

بِبَعْضٍ وَيَتَعَنُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » وكما ذكر في سورة البقرة كيف يتبرأ بعضهم من بعض ، وحكى في سورة إبراهيم أقوال كل من الضعفاء التابعين من الناس وأقوال التكبرين المتبوعين وقول الشيطان للفرقيين وتفصله من استحقاق الملام وكفره بما أشركوا .

(قال النار مشوا كم خالدين فيها إلا ما شاء الله) أى قال الله تعالى ردا عليهم : النار منزلكم وموضع إقامة خلود إلا ما شاء الله مما يخالف ذلك ، فكل شيء بمشيئته واختياره ، فإن شاء أن يرفعه كله أو بعضه عنكم أو عن بعضكم فعل ، فله السلطان الكامل والنفوذ الأعلى ، ولكن هل يشاء ذلك ؟ هذا مما يتعمق بعلمه وحده ولا يعلمه غيره إلا بإعلامه .

(إن ربك حكيم عليم) أى إنه تعالى حكيم فيما تتعلق به مشيئته من الجزاء الذى نص عليه فى كتابه ، عليم بما يستحقه كل من الفرقتين ، والبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء .

روى ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)
يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عز اسمه عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضا — أردف ذلك ببيان أن ذلك يحدث بتقديره تعالى وقضائه .

الإيضاح

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) تولية الله الناس بعضهم بعضا جعل بعضهم أنصارا وأولياء لبعض ، إما بمقتضى أمره فى شرعه ومقتضى سنته وتقديره كما فى ولاية المؤمنين بعضهم بعضا فى الحق والخير والمعروف ، فقد أمرهم بذلك فى شرعه ونهاهم عن ضده ، وهو أيضا مقتضى الإيمان الصادق وأثره الذى لا ينفك عنه على حسب تقدير الله الذى مضى به سنته فى خلقه ، وإما بمقتضى سنته وتقديره فحسب وهو ولاية الكفار المجرمين والمناققين بعضهم بعضا ، إذ هذا أثر مترتب على الاتفاق فى الاعتقاد والأخلاق واشتراك المنفعة على حسب تقديره تعالى وسنته فى نظم الحياة البشرية ، وهو لم يأمرهم بشيء مما يتناصرون به فى الباطل والشر والمنكر ، بل نهاهم عن ذلك ، ولكن شأن الأفراد والجماعات أن يميل كل منهم إلى من كان على شاكلته ويتولاه بالتعاون والتناصر فيما هم فيه مشتركون ويناوون من يخالفهم فى ذلك .

أى ومثل ذلك الذى ذكر من استمتاع أولياء الإنس والجن بعضهم ببعض فى الدنيا لما بينهم من التناسب والمساكلة نولى بعض الظالمين بعضا لأنفسهم وللناس بسبب ما كانوا يكسبون باختيارهم من أعمال الظلم المشتركة بينهم .

روى عن قتادة أنه قال فى تفسير الآية : إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم ، فال مؤمن يولى المؤمن من أين كان وحيث كان ، والكافر يولى الكافر من أين كان وحيثما كان وليس الإيمان بالتمنى ولا بالتلقى ، ولعمري لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل

طاعة الله ما ضرك ذلك ، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله ما نفعك ذلك شيئاً اه .

وروى أبو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) ما سمعتم يقولون فيه ؟ قال : سمعتم يقولون : إذا فسد الناس أمر عليهم شرارهم اه . ذاك أن الملوكة يتصرفون في الأمم الجاهلة الضالة تصرف الرعاة في الأنعام السائمة ، فهم يتخذون الوزراء والحاشية من أمثالهم فيقلدهم جمهور الأمة في سبى أعمالهم ، فيغلب الفساد على الصلاح ، وينسقون عن أمر الله فيهلكون أو يسلط عليهم الأمم القوية التي تستبيح حياهم وتثل عروشهم ويصبحون مستعبدين أذلاء بعد أن كانوا سادة أعزاء كما قال سبحانه : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا كَقَوْلِ عَلِيٍّ الْقَوْلُ فِدْمَرُنَاهَا تَدْمِيرًا » .

أما الأمم العاملة بسنن الاجتماع التي أمرها شورى بين زعمائها وأهل الرأي فيها ، فلا يستطيع الملوكة أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، بل يكونون تحت مراقبة أولى الأمر فيها .

وقد وضع الإسلام هذا الدستور فجعل أمر الأمة بين أهل الحل والعقد ، وأمر لرسول بالمشاورة ، فسار على هذا النهج ، وجعلت الولاية العامة — الخلافة — بالانتخاب .

واقفى الخلفاء الراشدون خطواته ، وجروا على سنته ، فقال الخليفة الأول أبو بكر رضى الله عنه في أول خطبة له : أما بعد فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فأعينونى ، وإذا زغت فقومونى .

وقال الخليفة الثانى على المنبر : من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه . . وقال الخليفة الثالث على المنبر أيام الفتنة : أمرى لأمركم تبع .

وقوله (الظالمين) يشمل الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس من الحكام وغيرهم ،

إذ كل من دؤلاء وأولئك يتولى من يشاكله فى أخلاقه وأعماله وينصره على من يخافه .

ثم أجاب سبحانه عن سؤال يخطر بالبال وهو : ما حال الظالمين إذا قدموا على الله يوم القيامة ؟ فأجاب بأنهم يسألون فقال :

(يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ؟) أى إنهم ينادون ويسألون عن دعوة الرسل لهم فتقوم الحجة عليهم فيما يترتب من الجزاء على مخالفتها .

وقوله : (رسل منكم) ظاهر فى أن كلا من الفريقين — الإنس والجن — قد أرسل منهم رسل إلى أقوامهم ، لكن جمهرة العلماء يقولون : إن الرسل كلهم من الإنس كما يدل عليه ظاهر الآيات الأخرى ، وقالوا إن المراد بقوله : منكم أى من جملة من لا من كل منكم ، وهو يصدق على رسل الإنس الذين ثبتت رسالتهم إلى الإنس والجن .

والجن عالم غيبى لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص ، وقد دل الكتاب الكريم وصحيح الأحاديث على أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم كقوله تعالى حكاية عن الذين استمعوا القرآن منهم أنهم قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ » فهذا ظاهر فى أنه كان مرسلًا إليهم فنؤمن بذلك ونفوض الأمر فيما عداه إلى الله .

ثم بين سبحانه وظيفة الرسل الذين أرسلهم الله إلى الفريقين بقوله :

(يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى إنهم يتلون عليه الآيات المبينة لأصول الإيمان وأحسن الآداب والفضائل ، والمنفصلة لأحكام التشريع التى من ثمراتها صلاح الأعمال والنجاة من الأهوال ، وينذرونكم لقاء يوم الحشر بالإعلام بما يكون فيه من الحساب والجزاء لمن كفر بالله وجحد بآياته .

ثم أجابوا عن سؤال فهم من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا حين ذلك التوبيخ الشديد ؟ فقيل .

(قالوا شهدنا على أنفسنا) أى شهدنا بإتيان الرسل وإنذارهم وبتقابلتهم بالكفر والتكذيب . وفى هذا الجواب اعتراف صريح بكفرهم ، وإقرار بأن الرسل قد أتوهم وبلغوهم دعوتهم إما مشافهة أو نقلا عن سمعها منهم .

وهذا موطن من موطن يوم القيامة ، وفى موطن آخر لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، وفى موطن ثالث يكذبون على أنفسهم بما ينكرون من كفرهم وأنهم قدموا شيئا من السيئات والخطايا .

ونحو الآية قوله : « قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ » .

(وغرتهم الحياة الدنيا) أى وغرتهم زينة الحياة الدنيا ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحب السلطان على الناس وعظيم الجاه ، فكفروا بالرسول عنادا وكبرا ، وقلدهم فى ذلك أتباعهم ، واغتر كل منهم بما يغتر به من التعاون مع الآخر . وأما غرور غيرهم من جاء بعدهم بالدنيا، فلما غلب عليهم من الإسراف فى الشهوات المحرمة والجاه الباطل حتى لقد أصبحت الخطوة بين الناس لذوى المال والنسب مهما اجترحوا من الموبقات وأبسلوا من المكارم والخيرات .

(وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى وبعد أن قامت عليهم الحجة شهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا فى الدنيا كافرين بتلك الآيات والنذر التى جاء بها الرسل حين رأوا أنه لا يجديهم الكذب ولا تنفعهم المكابرة .

والكفر بالرسول ضربان : كفر بتكذيبهم بالقول ، وكفر بعدم الإذعان النفسى الذى يتبعه العمل على حسب سنن الله فى ترتيب الأعمال على الطباع والأخلاق .

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها غافلون) أى ذلك الذى ذكر من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله لإصلاح حال الأفراد والجماعات فى شئونهم الدنيوية والأخروية ، وينذرونهم يوم الحشر والجزاء ، بسبب أن الله لم يكن من سنته فى تربية خلقه أن يهلك الأمم بعذاب الاستئصال الذى أوعده مكذبي الرسل ،

بظلم منهم وهم غافلون عما يجب أن يقفوا به ذلك الهلاك ، بل يسبق هلاك كل أمة إرسال رسول يبلغها ما يجب أن تكون عليه من الصلاح والحق بما يقصه عليها من آيات الوحي في عصره ، أو بما ينقله إليها من يبلغونها دعوته من بعده ، إذ من حكمة الله في الأمم جعل ما يحل بها من عقاب جزاء على عمل استحقته به ، فيكون عقابها تربية لها وزجرا لسواها .

والخلاصة — إن الله لا يظلم أحدا من خلقه ، بل هم الذين يظلمون أنفسهم ، وإن الإهانة والتعذيب تربية لهم ونأديب وزجر لغيرهم ، وإن هذا العقاب للآثم منه ما هو في الدنيا ومنه ما هو في الآخرة ، ومن الأول عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاءهم بما اقترحوا عندهم من الآيات السكونية ، وبعد أن أذكروهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها كما حصل لعاد وثمود ، وقد انقطع ذلك بانقطاع الرسل . وهلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق والفجور الذي يفسد الأخلاق ، ويقطع روابط المجتمع ويجعل بأس الأمة بينها شديدا .

وهذه الآية وما شاكلها من قواعد الاجتماع التي سبق أن شرح جانبها منها بعض علماء الاجتماع من المسلمين كابن خلدون ، لكن لم يستفد من ذلك من جاء بعده من علماءهم ، واستفاد منها غيرهم ، كما لم يستفيدوا من هدى القرآن ومثله العليا في إقامة ملكهم وحضارتهم على حسب ما أرشدهم إليه من سنن الاجتماع فيمن قبلهم ، وإنهم لا يزالون غافلين عن هذا الرشاد مع حاجة العصر إلى بذل أقصى ما يكون من الجهد في هذا المضمار ، لأن الأمم قد افتنت في الوصول إلى أغراضها بكل الوسائل التي يمكن أن يفكر فيها البشر ، كما هي سنة تنازع البقاء .

ولا نرى من المسلمين إلا معاذير لو تركوها لكان أخرى بهم وبما ينسبونه إلى دينهم كذبا وافتراء ، إذ يعتذرون تارة عن ضعف أممهم وتقصيرها بأن كل شيء بقضاء وقدر ، ولو سلم لهم هذا لكان الناس مجبورين في أعمالهم لاختارين ، وقواعد الدين تأتي هذا ، والتكاليف الشرعية مؤسسة على غير ما يقولون . .

وَأَيْنَ كَانَ هَذَا أَيَّامَ أَنْ كَانَ الْمَسَامُونَ فِي أَوْجِ عِزِّهِمْ يَكْفُحُونَ وَيَنَافُحُونَ وَيَتَغْلِبُونَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَيَفْتَحُونَ الْمَمَالِكَ وَالْأَمْصَارَ ، وَتَحْفَقُ عَلَيْهَا بِنُودِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ .
وتارة يسألون أنفسهم بأن هذا من علامات الساعة ، وأتى لهم بها ؟ وهل هم أوتوا من العلم ما يرشدهم إلى ما يدعون ، بل لقد بلغ الأمر بهم أن وسوس لهم الشيطان وهم ينادجون أنفسهم أو إذا خلوا إلى شياطينهم أن قالوا : إن تعاليم الإسلام أضعفتهم وأضاعت عليهم منكم : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » أفليست تعاليمهم هذه هي التي شيدت صروح المجد في سالف العصور وأقامت ملكا ضم أطراف المغرب والمشرق ؟

أليس أسلافهم بهذه التعاليم ثبوا عروش الأكراس والقيصرة ، ودوخوا الممالك ، وأسسوا حضارات ، ووضعوا قوانين لا تزال أرقى الأمم مدنية تمتح من معينها ، وتطفئ ظمأها من نيرها العذب ؟

وقد التمس بعضهم هداية غير هداية القرآن ليؤسس عليها سعادة دنياء ، فكان كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فلم يتم له ما أراد وخسر دنياء وأخراه ، وذلك هو الضلال البعيد .

(ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل فى طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها ، إن خيراً نغفر وإن شراً فشر .

(وما ربك بغافل عما يعملون) أى فكل عملهم يعلم من ربك وهو محصيه عليهم ، ومجازيهم بالسيئة سيئة مثلها ويضاعف الحسنات من فضله عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

وفى الآية إيماء إلى أن مناط السعادة والشقاء هو عمل الإنسان ومشيتته ، فإن شاء عمل عمل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فكان من الذين سمعوا القول واتبعوا أحسنه ، فجازاه الله أحسن الجزاء ، وإن شاء تنكب عن جادة الدين ورمى

أحكامه وراء ظهر يا وسار فى غلواء الضلال ، فكان من الأشقياء الذين كبكبوا فيها هم والعاوون وجنود إبليس أجمعون .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخَفِّفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعِدُونَ لَا تَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

شرح المفردات

يذهبكم أى يهلككم ، يستخاف أى ينشئ الذرية والنسل ، بمعجزين أى جاعلى من طلبكم عاجزا غير قادر على إدراككم ، والمكانة: الحال التى هم عليها ، والدار: هى الدنيا ، والمراد بالعاقبة: عاقبة الخير إذا لا اعتداد بعاقبة الشر ، لأن الله جعل الدنيا مزرعة الآخرة ، وقنطرة الحجاز إليها ، وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن العاقبة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى تقرير حجة الله على المكلفين الذين بلغتهم الدعوة فجحدوا بها ، وأنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين وأن سنة الله فى إهلاك الأمم فى الدنيا بجنايتها على أنفسها لا بظلم منه تعالى .

وهنا ذكر وعيد الآخرة وأنه مرتب على أعمال المكلفين لا بظلم منه سبحانه ، ولا الحاجة له تعالى إليه ، لأنه غنى عن العالمين ، بل لأنه من مقتضى الحق والعدل المقرونين بالرحمة والفضل .

الإيضاح

(وربك الغنى ذو الرحمة) أى وربك هو الغنى الكامل الغنى ، وهو ذو الرحمة الشاملة التى وسعت كل شىء ، إذ كل ما عده فهو محتاج إليه فى وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التى جعلها سبحانه قوام وجوده .

ويقال فى الخلق : هذا غنى إذا كان واجدا لأهم هذه الأسباب التى هى من فيض مولاه وهو مع ذلك محتاج إلى غيره ، انظر إلى الغنى ذى المال الكثيرته محتاجا إلى كثير من الناس من الزوج والخدام والعامل والطبيب والحاكم ، ومحتاجا إلى خالقه وخالق كل شىء كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » .

(إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى إن يشأ يذهبكم أيها الكافرون المعاندون واستخلف غيركم بعدكم يذهبكم بعذاب يهلككم به كما أهلك أمثالكم ممن عاندوا الرسل كعاد وثمود ، ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الأقوام ، فإنه غنى عنكم وقادر على إهلاككم وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم أو ذرية غيركم يكونون أحق برحمته منكم ، كما قدر على إنشائكم من ذرية قوم آخرين .

وقد صدق الله وعده فأهلك أولئك الذين عَادُوا خاتم رسله كبرا وعنادا وجحدوا بما جاء به وهم يعلمون صدقه ، واستخلف فى الأرض غيرهم ممن كان كفرهم عن جهل أو تقليد لمن قبلهم ولم يلبث أن زال بالتأمل فى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، فكانوا أكمل الناس إيمانا وإسلاما وإحسانا ، وهم المهاجرون والأنصار وذرياتهم ، وكانوا أعظم مظهر لرحمة الله للبشر حتى فى حروبهم وفتوحهم ، وشهد لهم بذلك أعداؤهم حتى قال مؤرخو الإفرنج : ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب . وبعد أن أنذرهم عذاب الدنيا وهلاكهم فيها أنذرهم عذاب الآخرة فقال :

(إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) أى إن ما توعدونه من جزاء الآخرة بعد البعث لآت لا مرد له ، وما أنتم بمعجزين الله بهرب ولا منع مما يريد ، فهو القادر على إعادتكم كما قدر على بدء خلقكم ، وهذا دليل قد ذكره الله فى كتابه مرات كثيرة . وقد أثار العلم فى هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول ، فأثبت أن هلاك الأشياء وفناءها ماهو إلا تحلل موادها وتفرقها ، وأنه يمكن تركيب المواد المتفرقة وإرجاعها إلى تركيبها الأول فى غير الأحياء .

بل بلغ الأمر ببعض العلماء من الألمان أن حاولوا إيجاد البشر بطريقة صناعية علمية بتنمية البذرة التى يولد منها الإنسان إلى أن صارت علة فضغة ، وزعم أنه يمكن بوسائل أخرى تغذية المضغة فى حرارة كحرارة الرحم إلى أن تتولد فيها الأعضاء حتى تصير إنسانا تاما ، وقال إنه يمكن إيجاد معامل للتفريخ البشرى كمعامل تفريخ الدجاج ، ولكن الكثير من العلماء قالوا إن هذه نظريات لا يمكن إخراجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود بالفعل .

وإذا كان علماء المادة يحاولون الوصول إلى ذلك ولا يعدونه مستحيلا ، فهل يعجز عنه خالق البشر وخالق كل شئ : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » ثم تم الوعيد والتهديد بأمره لرسوله أن ينذرهم بقوله :

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) أى يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التى أنتم عليها ، إني عامل على مكانتى وطريقتى التى ربانى ربي عليها وهدانى إليها وأقامنى عليها ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدار بتأثير أعماله .

وفى الآية إيماء إلى أن أحوال الأمم مرتبة على حسب أعمالها ، وأن أعمالها منبعثة من عقائدها وصفاتها النفسية ، وأن عاقبة كل عمل نتيجة حتمية له إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

قال صاحب الكشف : اعملوا على مكاتكم - تحتمل وجهين - اعملوا على تمككنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حال : على مكانك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه لا تدحرف عنه ، إني عامل على مكاتتي التي أنا عليها .

والمعنى — اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، فسوف تعلمون أيننا تكون له العاقبة الحمودة .

ثم قال — وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف في القتال وأدب حسن مع تضمن شدة الوعد والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل اه .

يقصد بذلك رحمه الله — أن في هذا الإنذار إحالة على المستقبل ليعلم وعده لرسوله بالنصر والتأييد ، وصدق وعيده لأعدائه بقهرهم في الدنيا بحيث يروونه بأعينهم ، وإذا صدق في الدنيا صدق في الآخرة ، وأن كلا منهما كان بإنباء الغيب ، وأن السبب الذي لأجله كانت عاقبة الرسول ومن اتبعه الحسن في الدنيا والآخرة واحد ، وكذلك عاقبة من ناوأه وكفر به ، وقد أشار إليه بقوله :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين لأنفسهم بالكفر بنعم الله واتخاذ الشركاء له في ألوهيته والتوجه إليهم فيما يتقرب به إليه تعالى أو فيما لا يطلب إلا منه وهو ما خفيت على المرء أسبابه ، إذ مثل هذا لا يدعى فيه إلا الله وحده ، وما عرف سببه يجب أن يطلب من طريق السبب ، مع العلم بأن خالق الأسباب جميعها هو الله تعالى ، وحال الظالمين للناس أشد من حال الظالمين لأنفسهم ، وكلهم لا يفوزون بفلاح لافي الدنيا ولا في الآخرة ، وإنما يفوز به أهل الحق والعدل الذين يؤدون حقوق الله وحقوق أنفسهم ، ولا يكمل مثل هذا إلا لرسول الله وجندهم من المؤمنين .

انظر كيف نصر الله رسوله على الظالمين من قومه كأكابر مجرمي مكة المستهزئين به ثم من سائر مشركي العرب ، ثم نصر أصحابه على أعظم أم الأرض وأقواها جندا كالرومان والفرس ، ثم نصر من بعدهم على من ناوأهم من أهل الشرق والغرب ،

فلما ظلموا أنفسهم وظلموا الناس لم تبق لهم ميزة عن غيرهم تمكنهم من الفلاح والنور
وأنحصر الفوز فى الأسباب المادية والأسباب المعنوية كالصبر والثبات والعدل والنظام .

ولا عجب بعد هذا أن يتغلب عليهم غيرهم ، لأن الله إنما وعدهم نصره إذا هم
نصروه وأقاموا شرعه وسلكوا سبيل الحق والعدل كما قال : « فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْدِيَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ » .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ
بِرِّعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ
لِللَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ
الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُزْودُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا
هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِّعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ
بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ
لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ،
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ (١٤٠)

شرح المفردات

ذراً أى خلق على وجه الاختراع والإبداع ، شركائنا أى الأوثان التى يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، لشركائهم أى سدنة الآلهة وخدمها ، أو الشياطين الذين يوسوسون لهم ما يزين ذلك فى أنفسهم ، ويردوهم أى يهلكوهم بالإغواء ، ويلبسوا أى يخلطوا ، حجر أى محجور ممنوع ، كما قالوا : ذبح وطحن أى مذبوح ومطحون ، وجزاه بكذا جعله جزاء له على عمله قال تعالى : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعَرْشَةَ بِمَا صَبَرُوا » وصفهم أى جزاء وصفهم .

المعنى الجملى

بعد أن حاج سبحانه المشركين وسائر العرب فى كثير من أصول الدين وكان آخرها البعث والجزاء - ذكر هنا بعض عبادتهم فى الحرث والأنعام والتحليل والتحریم بباعث الأهواء النفسية والخرافات الوثنية .

الإيضاح

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) أى وجعلوا لله نصيباً مما خلق من ثمر الزرع وغلاته كالتمر والحبوب ونتاج الأنعام ، ونصيباً لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام .

(فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) أى فقالوا فى النصيب الأول هذا لله أى نتقرب به إليه ، وفى النصيب الثانى هذا لشركائنا أى لمعبوداتنا نتقرب به إليها ، وقوله بزعمهم أى بتقولهم الذى لا بينة لهم عليه ولا هدى من الله ، إذ جعله قربة لله يجب أن يكون خالصاً وحده لا يشرك معه غيره فيه ، وأن يكون بإذنه ، لأنه دين والدين لله ومن الله وحده ، فهذا زعم مخترع لا دين مشترع ، فيكون باطلاً .

وقد روى أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لقرى الضيفان ، وإكرام الصبيان ، والتصدق على المساكين ، ونصيب آلهتهم لسدتها وقرائنها وما ينفق على معابدها .

(فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله لا بالتصدق ولا بالضيافة ولا غيرهما ، بل يهتمون بحفظه وإنفاقه على السدنة وذبح الذبائح والقرايين عندها .

(وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) أى وما عينوه وجعلوه له فهو يحول أحيانا للتقرب به إليهما .

(ساء ما يحكمون) أى قبيح ما يحكمون به بيئثارهم الخلق العاجز عن كل شيء على الخالق القادر على كل شيء ، وبعملهم شيئا لم يشرعه الله .
وللقبيح وجوه متعددة منها :

(١) إنه اعتداء على الله بالتشريع وهو لم يأذن لهم به .
(٢) الشرك فى عبادته تعالى ، ولا ينبغى أن يشرك مع الله سواء فيما يتقرب به إليه .

(٣) ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم .

(٤) إن هذا حكم لا مستند له من عقل ولا هداية من شرع .

نقل على بن أبى طلحة والعمري عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا أو حرثوا لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن .

وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى فيجعلونه للأوثان .
ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الشرك أيضاً عملاً لا مستند له من عقل ولا شرع فقال :

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) أى ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرت والأنعام بين الله والآلهة - زين لكثير من المشركين شركائهم - سدنة الآلهة وخدمها - أن يقتلوا أولادهم ، وكان مصدر هذا التزيين وجوهاً مختلفة منها :

(١) انتقاء الفقر الحاصل أو المتوقع ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » وأشار إلى الثانى بقوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ » .

(٢) إلقاء العار بوأد البنات أى بدفنهن وهن على قيد الحياة خشية أن يكن سببا للعار أو القتال إذا كبرن ، أو خشية أن يقترن بأزواج دون آبائهن فى الشرف .

(٣) التدين بنحر الأولاد للآلهة تقربا إليها بنذر أو بغير نذر ، فقد كان الرجل فى الجاهلية ينذر إن ولده كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب فى قصص طويل أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنا ابن الذبيحين » .

وسمى الله المزيين لهم الشرك من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن شركاء وإن كانوا هم لم يسموهم لا آلهة ولا شركاء ، لأنهم لما أطاعوهم طاعة إذعان وخضوع فى التحليل والتحریم ولا يكون ذلك إلا لله - سماهم كذلك كما قال : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

وقد حذا كثير من المسامین حذو هؤلاء فدعوا غير الله من الموقى تضرعا وخضوعا عند قبورهم مع التقرب إليهم بالصدقات وذبائح النسك ، ولكنهم لا يسمون عبادتهم هذه شركا ولا عبادة ، بل يسمونها توسلا (والأسماء لا تغير الحقائق والأعمال) فالدعاء والتضرع أدل على الحقائق من الأسماء والتأويلات .

ثم ذكر سبحانه علة تزيين المنكرات لهم فقال :

(ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) أى إنهم زينوا لهم هذه المنكرات ليهلكوهم

بالإغواء ، ويفسدوا عليهم فطرتهم ، فتنقلب عواطف ود الوالدين من رافة ورحمة إلى قسوة ووحشية ، فينحر الوالد ولده ويدفن بنته الضعيفة بيده وهى حية .

والدين الذى لبسوه وخلطوه هو ما كانوا يدعونه من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام ، وقد اختلط عليهم بما ابتدعوه من تقاليد الشرك حتى لم يعرف الأصل الذى كان يتبع من هذه الإضافات التى ضموها إليه .

(ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) أى ولو شاء الله أن يخلق الناس مطبوعين على عبادته طبعاً لا يستطيعون غيرها كالملائكة ، فلا يؤثر فيهم إغواء ولا تجدى فيهم وسوسة - لفعّل ، ولكن شاء أن يخلقهم مستعدين للتأثر لكل ما يرد على أنفسهم من الأفكار والآراء ، وما يشاهدون من المحسوسات ، واختيار ما يترجح عندهم أنه الخير على ما يقابله ، ومن ثم يؤثر في نفوسهم ما يستفيدونه بالتعليم والاختيار والمعايشة والمخالطة ، والناس يتفاوتون في هذا جد التفاوت ، فلا يمكن أن يكونوا على رأى واحد أو دين واحد .

فدعهم أيها الرسول وما ينتحلونه من شرائع وما يفترون من عقائد ، وعليك بما أمرت به من التبليغ ، والله هو الذى يتولى أمرهم وله سنن في هداية خلقه لا تتغير ولا تتبدل ، ومن سننه أن يغلب الحق الباطل .

ثم ذكر نوعاً ثالثاً من آرائهم الفاسدة فقال :

(وقالوا هذه أنعام وحرت حبر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) أى إنهم لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزرعهم أقساماً ثلاثة :

(١) أنعام وأقوات من حبوب وغيرها تقتطع من أموالهم وتجعل لعبوداتهم تعبداً وتديناً ، ويمتنعون من التصرف فيها إلا لها ، ويقولون هى حبر أى محتجرة فلا لكمة لاتعطى لغيرهم .

وقوله لا يطعمها إلا من نشاء أى لا يأكل منها إلا الرجال دون النساء ، وقوله بزعمهم أى بادعائهم الباطل من غير حجة ولا برهان عليه .

(٢) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تتركب ولا يحمل عليها ، قال السدى : هى البحيرة والسائبة والحمى وقد تقدم ذكرها فى قوله : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْتَدُونَ » .

(٣) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها فى الذبح ، بل يهلون بها لألهتهم وحدها ، وكانوا إذا حجوا لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهرها .

(افتراء عليه) أى إنهم قسموا هذا التقسيم وجعلوه من أحكام الدين ونسبوه إلى الله افتراء عليه واختلاقا له والله منه برىء ، فهو لم يشرعه لهم ، وما كان لغير الله أن يحرم أو يحلل على العباد ما لم يأذن به الله ، كما جاء فى قوله : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ » .

(سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه وينكل بهم شر النكال بسبب هذا الافتراء القبيح .

ثم ذكر ضربا آخر من أحكامهم فى التحريم والتحليل ينبىء عن سخفهم فقال : (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء) المراد بالأنعام هنا البهائم أى المشقوقة الأذان ، والسوايب التى تسبب وتترك للألح فلا يتعرض لها أحد ، وكانوا يجعلون لبنها للذكور ويحرمونه على الإناث ، وإذا ولدت ذكرا جعلوه خالصا للذكور لا تأكل منه الإناث ، وإذا كان ميتا اشترك فيه الذكور والإناث ، وإذا ولدت أنثى تركوها للنساج .

(سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم) يقولون وصف كلامه بالكذب - إذا

كذب ، وعينه تصف السحر أى هى ساحرة ، وقده يصف الرشاقة ؛ على معنى أنه رشيق على سبيل المبالغة ، حتى كأن من سمعه أوره وصف له ذلك بما يشرحه له قال أبو العلاء :

سرى برق المعرة بعد وهن فبات برامة يصف المللا
أى سيجزيهم الله تعالى جزاء وصفهم ، لأن حكمته تعالى فى الخلق وعلمه بشؤونهم ، جعل عقابهم عين ما يقتضيه وصفهم ونعتهم الروحى ، إذ لكل نفس فى الآخرة صفات تجعلها فى مكان معين سواء أكان فى أعلى عليين أم فى أسفل سافلين .
والخلاصة — إن منشأ الجزاء نفس الإنسان باعتبار عقائدها وسائر صفاتها التى يطبعها العمل عليها .

وقد يكون المعنى — سيجزيهم وصفهم لربهم بما جعلوا له من الشركاء فى العبادة والتشريع ، أو وصف ألسنتهم الكذب بما افتروا عليه فيما كما قال تعالى :
« وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » الآية .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) أنكر سبحانه على مشركى العرب أمرين عظيمين ونعاهما عليهم ، وحكم فيهم حكما عدلا وهما :

(١) قتل أولادهم وواد بناتهم ، وبذلك خسروا خسرانا مبينا ، فإن قتل الأولاد يستلزم خسران كل ما كان يرجى من العزة والنصرة ، والسرور والغبطة ، والبر والصلة ، وخسران العاطفة الأبوية ورأفتها واستبدال القسوة والغلظة بها ، إلى نحو أولئك من مساوى الأخلاق التى يضيق بها العيش فى الدنيا ، وبها يحل العقاب فى الآخرة .

(٢) تحريم ما رزقهم الله من الطيبات .

وقد نعى الله عليهم هذين الجُرمين وعللهما بالخسران والسفاهة وعدم العلم والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء .

أما الخسران فلأن الولد نعمة من الله على العبد ، فإذا سعى العبد في زوالها فقد خسر خسرانا عظيما ، إذ هو قد استحقق الذم في الدنيا وقال الناس إنه قتل ولده خوف أن يأكل طعامه ، والعقاب في الآخرة ، لأنه ألحق أعظم أنواع الأذى بأقرب الناس محبة إليه .

وأما السفاهة ، وهى اضطراب النفس وحماتها ، فلأنه أقدم على ضرر محقق وهو القتل خوفا من ضرر موهوم وهو الفقر .

وأما عدم العلم بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقيح فذلك من أقبح القبائح والمنكرات .

وأما الافتراء على الله فلا أنهم جعلوه ديناً يتقرب به إليه وهو جرأة عليه ، وذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر .

وأما الضلال المبين فلا أنهم لم يرشدوا إلى مصالح الدين ولا منافع الدنيا .
وأما عدم الاهتداء إلى شيء من الحق والصواب ، فلا أنهم لم يعملوا بمقتضى العقل ولا بهدى الشرع في منافع الدنيا وسعادة الآخرة .

وفائدة قوله وما كانوا مهتدين — بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء قط ، والإنسان أحيانا قد يضل ثم يهتدى ولكن هؤلاء لم يحصل لهم الاهتداء بحال .

أخرج البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً — إلى قوله وما كانوا مهتدين) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى الآية : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويفذوكلبه .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَسَكِيمٌ بِدُورٍ مُبِينٍ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ آلَ اللَّهِ كَرِينٌ حَرَّمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ ، أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَ اللَّهِ كَرِينٌ حَرَّمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ مُشْهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَفَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) .

شرح المفردات

الإِنشاء : إيجاد الأحياء وتربيتها وكل ما يكل بالتدريج كالإنشاء السحاب والدور والشعر ، والجنت : البساتين والكروم الملتفة الأشجار ، لأنها تجن الأرض وتستورها ، والمعروشات : المحمولات على العرائش ، وهى الدعائم التى يوضع عليها مثل السقف من العيدان والقصب ، غير المعروشات : ما لم يعرش منها ، والمراد أن الجنت نوعان : نوع المعروشات كالكرم ؛ ونوع غير المعروشات من سائر أنواع الشجر الذى يستوى على سوقه ولا يتسلق على غيره ، والأكل (بضم الهمزة والكاف) ما يؤكل ، متشابهها أى فى النظر ، وغير متشابه أى فى الطعم ، والحولة : الكبير من الإبل والبقر الذى

يحمل عليه الناس الأثقل ، والفرش : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الابل والبقر ، أو هو ما يتخذ الفرش من صوفه ووبره وشعره ؛ والخطوات واحدها خطوة (بالضم) : وهى المسافة التى بين القدمين ، ما شتملت عيه الأرحام : هى الأجنة .

المعنى الجملى

علمت فى سيف أن أصول الدين التى عنى الكتاب الكريم بذكرها ، واهتم ببيانها ، وكررها المرة إثر المرة - هى التوحيد والنبوة والبعث والقضاء والقدر ، وقد بالغ سبحانه فى تقرير هذه الأصول وأتبعها بذكر آراء لهم سخيفة وكلمات فاسدة فى التحليل والتحريم ، تنبيهها إلى ضعف عقولهم ، وتنفيها للناس من اتباع آرائهم والسير على أهوائهم .

وهنا عاد إلى المقصود الأصلى وهو توحيد الله باعتقاد الألوهية ، والربوبية له وإفراده بالعبادة وحق التشريع ، إذ لا رب غيره ، ولا خالق سواه يعبد معه أو من دونه ، ولا شارع سواه لعبادة ولا تحليل ولا تحريم .

الإيضاح

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله) أى وربكم أيها الناس هو الذى ابتدع البساتين والكروم المتنفة الأشجار التى تجن الأرض وتستقرها ، سواء المعروش منها وغير المعروش ، وأنشأ النخل والزرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل .

والنخل وإن كان من قسم الجنات غير المعروشات ، ذكر على سبيل الانفراد لما فيه من المنافع الكثيرة ولا سيما للعرب ، فإن بسره ورطبها فاكهة وغذاء ، وتمره من أفضل الأقوات التى تدخر ، ومن أيسرها تناولاً فى السفر والحضر ، ولا يحتاج

إلى طليخ ولا إلى معالجة ، ونواد علف نرواحلهم ، ويتخذ منه شراب لذيد إذا نبذ في الماء زمنا قليلا - إلى ما في خوصه ونيقه من الفوائد والمنافع .

وهذه الفوائد يفضل السكرم الذى هو أقرب الشجر منه تفكها وتغذية وشربا وأشبهه به شكلا ولونا في عنبه وزيبه ومنافعه .

والزرع وهو النبات الذى يكون بحرث الناس ، يشمل كل ما يزرع لكنه خص بما أتى منه القوت كالقمح والشعير ؛ وقد ذكرت هذه الأنواع على طريق الترقى من الأدنى في التغذية واقتيات الناس إلى الأعلى والأعم ، فإن الحبوب هى التى عليها لمعول في الاقتيات .

(وانزيتون والرمان متشابه وغير متشابه) أى وأنشأ الزيتون والرمان متشابهها في المنظر ، وغير متشابه في الطعم .

(كلوا من ثمره إذا أثمر) أى كلوا من ثمر ذلك الذى ذكر إذا أثمر وإن لم يدرك ويبنع .

وخلاصة ما سلف — إنه سبحانه بعد أن أعلم عباده بأنه هو الذى أنشأ لهم ما فى الأرض من الشجر والنبات الذى يستعمون منه أقواتهم — أعلمهم بأنه أباح ذلك كله لهم ، فليس لأحد غيره أن يحرم شيئاً منه عليهم ، لأن التحريم حق لله الخالق للعباد والأقوات جميعا ، فمن ادعاه لنفسه فقد جعل نفسه شريكا له تعالى ، كما أن من أذن لتحريم غير الله فقد أشركه معه سبحانه وتعالى .

والتحريم الذى لا يكون إلا لله هو تحريم التشريع ، أما المنع من بعض هذا الثمر لسبب غير ذلك فلا شرك فيه ، فإذا منع الطبيب بعض المرضى من أكل الثمر أو الخبز لأنه يضره يكون منعاً شرعياً أو تحريماً لا على معنى أن الطبيب هو الذى شرع ذلك ، بل الله هو الذى حرم كل ضار والطبيب هو الذى عرف المريض ضرره . وكذلك منع السلطان من صيد بعض الطيور لمصلحة عامة كالحاجة إلى كثرته لحفظ بعض الزرع ، لأنه يأكل الحشرات المهسكة مثلاً لا يكون تحريماً ذاتياً

بل تحريماً مؤقتاً ما دام السبب والسلطان هو المكلف شرعاً بصيانة المصالح ودرء المفاسد وليس له أن يحرم بمحض إرادته ، وإذا هو أخطأ في اجتهاده وجب على الأمة الإنكار عليه ، ووجب عليه أن يرجع إلى الحق .

وفائدة قوله إذا أثمر — بيان أن أول وقت لإباحة الأكل هو وقت الإثمار ، وليس بالآزم أن يدرك وينبع ، فالكرم ينتفع بثمره حصراً ما فعنباً فربيباً ، والنخل يؤكل ثمره بسراً فربطاً فتمراً ، والقمح يطحن ويؤكل خبزاً أو يطبخ أو يعمل حلوى على أشكال شتى .

(وآتوا حقه يوم حصاده) أى وآتوا الحق المعلوم فيه ذكر من الزرع وغيره المستحقه من ذوى القربى واليتامى والمساكين زمن حصاده جملة ، ويدخل فى الحصاد جنى العنب وصرم النخل .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » قال ما سقط من السنبيل وقال مجاهد فيه : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبيل ، فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم ، فإذا أذريتته وجمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل وحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر ، فإذا جددته (قطعته) فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، فإذا جمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته . وعن ميمون بن مهران وزيد بن الأصم أن أهل المدينة كانوا إذا صرموا النخل يخيئون بالعذق فيضعونه فى المسجد فيجئ السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : « وآتوا حقه يوم حصاده » .

وعن سعيد بن جبير قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة . الرجل يعطى من زرعه ويعلف الدابة ويعطى اليتامى والمساكين ويعطى الضعف ، يريد أن هذا الأمر فى الصدقة المطلقة غير المعينة ، ومما يؤيد هذا أن السورة مكية والزكاة المحدودة فرفضت بالمدينة فى السنة الثانية من الهجرة .

(ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) أى كلوا مما رزقكم الله من غير إسراف فى الأكل كما قال فى آية أخرى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

والاعتداء والإسراف : مجاوزة الحد ، والحد الذى ينهى الله عن تجاوزه إما شرعى كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام ، وإما فطرى طبعى وهو تجاوز حد الشبع إلى البطنة الضارة .

(ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى وأنشأ من الأنعام كبارا منها تصلح للحمل ، وصغارا مثل الفصلان ، دانية من الأرض لصغر أجرامها كالفرش المفروش عليها . (كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا من هذه الأنعام وغيرها وانتفعوا بها بسائر ضروب الانتفاع المباحة شرعا .

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فتحرموا ما لم يحرمه الله عليكم ، فإن ذلك إغواء منه ، والله المبدع قد أباحها لكم فليس لغيره أن يحرم أو يحلل ، ولا أن يتعبدكم به .

ويقال لمن اتبع آخر فى أمر وبالغ فى التماسى به — اتبع خطواته ، ولا شك أن تحريم ما أحل الله من أتبع المبالغات فى اتباع إغواء الشيطان ، لأنه اتبع له فى حرمان النفس من الطيبات ، لا فى الاستمتاع باللذات كما هو أكثر غوايته ؛ ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى لا تتبعوه لأنه ظاهر العداوة بينهما ، لا يأمركم إلا بكل قبيح يسوء فعله حالا أو استقبالا ، ويأمركم بالافتراء على الله بغير علم كما قال عز اسمه : « إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

وبعد أن ذكر سبحانه أن الأنعام إما حمولة وإما فرش ، فصلها وقسمها ثمانية أزواج ، فإن الحمولة إما إبل وإما بقرة ، والفرش إما ضأن وإما معز ، وكل من الأقسام الأربعة إما ذكر وإما أنثى ، وكل هذا لإيضاح المحال التي نقولها على الله تعالى بالتحريم والتحليل ثم تبكيهم بظهور كذبهم وافتراءهم في كل محل من هذه المحال بتوجيه الإنكار إليها مفصلة فقال :

(ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين : ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) أى أنشأ سبحانه من الضأن زوجين السكش والنعجة ، ومن المعز زوجين التيس والعنز ، وهذه الأنواع الأربعة تفصيل للفرش ، فقل لهم أيها الرسول تبكتنا وتوختنا : أحرم الله الذكرين السكش والتيس من ذينك النوعين أم حرم الأنثيين النعجة والعنز أم حرم ما حملت إناث النوعين ؟ أخبروني ببينة تدل على ذلك من كتاب الله أو خبر من أنبيائه إن كنتم صادقين في دعوى التحريم .

وكذلك أنشأ من الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة ، فقل لهم تأنبوا وإنكارا وإلزاما للحجة . أحرم الذكرين منهما أم حرم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من ذينك النوعين ؟

وخلاصة ذلك — إن المشركين في الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام ، فاحتج سبحانه على إبطال ذلك — بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكرا وأنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراما ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الإناث وجب تحريم الأولاد كلها ، لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث . وقصارى ذلك — إنه تعالى ما حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة ، وإنهم كاذبون في دعوى التحريم . وقد فصل ذلك أتم التفصيل مبالغة في الرد عليهم .

ثم زاد فى الإنكار والتهم بهم فقال :

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا) أى أعندكم علم يؤثر عن أحد من رسله فتنبئونى به ، أَمْ شَهِدْتُمْ رَبَّكُمْ فَوْصَاكُمْ بِهَذَا التَّحْرِيمِ مَشَافَهَةً بغير واسطة ؟ - كلاً ، ما حصل هذا ولا ذاك ، فما هو إلا محض افتراء على الله يقلد فيه بعضكم بعضاً بقوله إن الله حرم علينا كذا وكذا كما قال تعالى : « وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ » .

والخلاصة - إنكم إذ لم تؤمنوا بنبي فلا طريق لكم إلى علم ذلك على حسب ما تقولون إلا أن تشاهدوا ربكم وتتلقوا منه أحكام الحلال والحرام .

وبعد أن نفى الأمرين بالبرهان أثبت أنه افتراء على الله لإضلال عباده وهو ظلم يجنيه الإنسان على نفسه وعلى غيره ويحضى سوء عاقبته ، ومن ثم قال :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى لا أحد أظلم منكم ، لأنكم من هؤلاء المفترين على الله بقصد الإضلال عن جهل تام .

ونفى العلم شامل لما يؤثر أو يعقل ويستنبط كالنظر العقلى والتجارب العملية وطرق درء المفسد والشروع وتقدير المصالح وعمل البر والخير .

والخلاصة - إن فى ذلك تسجيل الغباوة عليهم وعمى البصيرة باتباعهم محض التقليد من غير عقل ولا هوى ، فإن عملهم ليس له أنارة من علم ولا قصد إلى شيء من الهدى إلى حق أو خير .

وقد وجد فى البشر ناس فكروا وبحشوا فيما يجب عليهم لله من الشكر والعبادة واتباع الحق والعدل وفعل الخير على حسب ما يرشد إليه العقل ، وفيما ينبغي لهم أن يجتنبوه من الطعام والشراب فأصابوا فى بعض ما هدتهم إليه عقولهم وأخطأوا فى بعض ، وكانوا خير الناس للناس على حين فترة من الرسل ، كما فعل قصى

إذ وضع للعرب سننا حسنة كسقاية الحاج ورفادتهم وإطعامهم ، وسن الشورى في مهام الأمور .

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق للرشاد من افترى عليه الكذب وقال عليه الزور والبهتان ، ولا يهديه إلى الحق والعدل لامن طريق الوحي ولا من طريق العلم ، بل يصده عن استعمال عقله فيما يهديه إلى الصواب وعما فيه صلاحه عاجلا وآجلا .

قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) .

شرح المفردات

الطاعم: الآكل، والميتة: البهيمة ماتت حتف أنفها ، والمسفوح: المصبوب السائل كالدم الذى يجرى من المذبوح ، رفس أى قدر قبيح ، الإهلال: رفع الصوت ، والمراد به الذبح باسم الأصنام ، اضطر أى أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شئ منه ، وباغ أى طالب لذلك قاصد له ، عاد أى متجاوز قدر الضرورة ، الذين هادوا: هم اليهود لقولهم : « إِنَّا هُذَنَّا إِلَيْكَ » أى رجعنا وتبنا ، الظفر للانسان وغيره: مما لا يصيد ،

والمخلب لما يصيد ، والشحم : ما يكون على الأمعاء والكرش والكلى من المادة الدهنية ، حملت ظهورها أى علقته بها ، والحويا : المباخر أو المرباض (مجتمع الأمعاء فى البطن) أو المصارين والأمعاء ، بأسه أى عذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بأمر من ربه على لسان رسله . ومن فعل ذلك يكون مفترياً على الله معتدياً على مقام الربوبية ، ومن اتبعه فى ذلك فقد اتخذ شريكاً لله تعالى ، وأبان أن من هذا الافتراء ما حرّمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحارث .

فى على ذلك بذكر ما حرّمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله وأسنه بعض الرسل قبله.

أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا » الآية .

الإيضاح

(قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به) أى قل أيها الرسول هؤلاء المفتريين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وفل نفيرهم من الناس : لا أجد فيما أوحاه إلىّ ربى طعاماً محرماً على آكل يريد أن يأكله - إلا أن يكون ميتة لم تذك ذكاة شرعية ، وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، ولمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجرى من المذبوح ، فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال ، وفى الحديث « أحلت لنا ميتتان السمك والجراد ، ودمان الكبد والطحال » أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك

خبثت تعافه الطباع السيمة ، وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقا أهل غير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبداً ويذكر اسمه عليه عند ذبحه .

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شئ من هذه الحرمات حال كونه غير مرید لذلك ولا قاصده ، ولا متجاوز حد الضرورة — فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره — غفور رحيم ، فلا يؤاخذ به بأكل ما يسد به مخمخته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

وإخلاصة — قل لا أجد فيما أوحى إلى من أخبار الأنبياء وشرائعهم ، ولا فيما شرع على لسانى — أن الله حرم أى طعام إلا هذه الأنواع الأربعة ، وما حرمه على اليهود تحريماً مؤقتاً عقوبة لهم وهو ما ذكر أهمه فى الآية التالية ، ودليل التوقيت قوله فى سورة آل عمران : « وَلِأَحِلَّ لَكُمُ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ » وقوله مخاطباً من يتبع النبى صلى الله عليه وسلم منهم : « وَيُحِلُّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتِ وَبُحُرُمَ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » ودليل كونه عقوبة لآذاته قوله : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ » .

وما صح من الأحاديث فى النهى عن طعام غير هذه الأنواع الأربعة فهو ما مؤقت لمعارض وإما للكرهية فقط ، ومن الأول تحريم الحمر الأهلية ؛ فقد روى ابن أبى شيبة والبخارى عن ابن عمر قال : « نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر » ومن الثانى ما رواه البخارى ومسلم عن أبى ثعلبة الخشنى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » .

ثم بين سبحانه ما حرمه على بنى إسرائيل خاصة عقوبة لهم لا على أنه من أصول شرعه على السنة رسله قبلهم أو بعدهم فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) أى وعلى الذين هادوا دون غيرهم من أتباع الرسل حرمنا كل ذى ظفر أى مالم يس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والإوز والبط كما قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد .

(ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الخوايا أو ما اختلط بعظم) أى إنه حرم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شئ منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة وهى الثروب (واحدها ثروب ، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش) وشحوم الكلى .
والخلاصة — ومن البقر والغنم دون غيرها مما أحل لهم من حيوان البر والبحر حرمنا عليهم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة لعدم اختلاطها بلحم ولا عظم ، ولم نحرم عليهم ما حملت الظهور أو الخوايا أو ما اختلط بعظم ، والسبب فى تخصيص البقر والغنم بهذا الحكم أن القرابين عندهم لا تكون إلا منهما ، وكان يتخذ من شحمهما الوقود للرب كما ذكر ذلك فى الفصل الثالث من سفر اللاويين فقد جاء فيه بعد التفصيل فى قرايين السلامة من البقر والغنم (كل الشحم للرب فريضة فى أجيالكم فى جميع مساكنهم ، لا تأكلوا شيئاً من الشحم ولا الدم) .

(ذلك جزيناهم ببغيهم) أى إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة ببغيهم فشدد عليهم بذلك ، وليس ذلك بالخبيث لذاته .

ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود من الأنبياء التى لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ولا قومه يعلمون منها شيئاً لأمتهم ، وكان مظنة تكذيب المشركين له ، لأنهم لا يؤمنون بالوحي ومظنة تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عقوبة ببغيهم وظلمهم ، أكده فقال :

(وإنا لصادقون) أى وإنا لصادقون فى هذه الأخبار عن التحريم وعلمته ، لأن أخبارنا صادرة عن العلم المحيط بكل شئ ، ولأن الكذب محال علينا ، لأنه نقص فلا يصدر عنا .

(فَإِنْ كَذِبُوكُمْ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)
 هذا الخطاب إما لليهود وهو المروى عن مجاهد والسدى ، وإما للمشركي مكة .
 فعلى الأول يكون المعنى — فَإِنْ كَذِبَكُمُ الْيَهُودُ وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ
 شَرِّهِمْ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ بَغْيِهِمْ عَلَى النَّاسِ وَظَلَمِهِمْ لَهُمْ وَلَأَنْفُسَهُمْ ، وَاحْتَجُّوا
 عَلَى إِنْكَارِ كَوْنِهِ عَقُوبَةً بِكَوْنِ الشَّرْعِ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ — فَأُجَابُهُمْ بِمَا يَدْحُضُ هَذِهِ
 الشَّهَادَةُ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ حَقًّا وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَرُدَّ بَأْسَهُ وَيَمْنَعُ عِقَابَهُ
 عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ، فِرْصَابَةُ النَّاسِ بِالْمَحَقِّ وَالشَّدَائِدُ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى جَرَائِمِ ارْتِكَابُوهَا ،
 قَدْ تَكُونُ رَحْمَةً بِهِمْ ، وَقَدْ تَكُونُ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِقَوْمِهِمْ لِيَنْتَهَوْا عَنْ مِثْلِهَا ، وَهَذَا الْعِقَابُ
 مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الْمُطْرَدَةِ فِي الْأُمَمِ وَإِنْ لَمْ يَطْرُدْ فِي الْأَفْرَادِ .

وعلى الثاني يكون المعنى — فَإِنْ كَذِبَكُمُ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا فَصَّلْنَاهُ مِنْ أَحْكَامِ
 التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَقُلْ لَهُمْ : رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يَعْجَلُ بِكُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى
 تَكْذِيبِكُمْ ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ فَإِنَّهُ إِمَّالٌ لَكُمْ لَا إِهْمَالٌ لِمَجَازَاتِكُمْ .

وفي هذا تهديد لهم ووعيد إذا هم أصرُّوا على كفرهم وافتراءهم على الله بتحريم
 ما حرموا على أنفسهم . كما أن فيه إبطاء لهم في رحمته الواسعة إذا رجعوا عن إجرامهم
 وآمنوا بما جاء به الرسول ، فيسعدون في الدنيا بحل الطيبات وفي الآخرة بالنجاة من
 النار ودخول الجنات .

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا
 حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ،
 قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)
 قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا

فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) .

شرح المفردات

الأنعام : الحزر والتخمين ويراد به لازمه وهو الكذب ، الحجّة : الدلالة المبينة
للقصد المستقيم ، هلم أى أحضروا ، يعدلون أى يتخذون له مثلاً وعديلاً يعادله ويشاركه .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سالف الآيات فى تفصيل أصول الإسلام من توحيد الله والنبوة
والبعث ، وفى دحض شبهات المشركين التى كانوا يحتجون بها على شركهم وتكذيبهم
لِلرسل وإنكارهم للبعث ، وفى بيان أعمالهم التى هى دلائل على الشرك من التحريم
والتحليل بخرافات وأوهام .

وهنا ذكر شبهة لهم مثل يمثلها كثير من الكفار ، وهم وإن لم يكونوا قالوها
وأوردوها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الله المحيط علمه بكل شىء يعلم أنهم
سيقولونها ، فذكرها ورد عليها بما يبطلها ، وكان ذلك من إخباره بأمر الغيب
قبل وقوعها .

الإيضاح

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء)
أى سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله ألا نشرك به من اتخذنا من الأولياء والشفعاء
من الملائكة والبشر ، وألا نعظم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم ، وألا يشرك آباؤنا
من قبنا — لما أشركنا ولا أشركوا ، ولو شاء ألا نحرم شيئاً مما حرمنا من الحرث
والأنعام وغيرها — لما حرمنا ، ولكنه شاء أن نشرك به هؤلاء الأولياء والشفعاء

نيقربونا إليه زلفى ، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها فحرمناها ،
فأتيناها دليل على مشيئته تعالى وعلى رضاه وأمره بها .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » وقوله :
« وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » .
وقد رد عليهم شبهتهم فقال :

(كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أى ومثل ذلك التكذيب الذى صدر من مشركى مكة لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إبطال الشرك وإثبات توحيد الله فى الألوهية والربوبية ، ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم - كذب الذين من قبلهم لرسولهم تكذيبا غير مبنى على أساس من العلم .

والرسل صلوات الله عليهم قد أقاموا الحجج وبراهين العلمية والعقلية على التوحيد وغيره مما ادعوا ، وأيدهم الله بآيات ، ولكن المكذبين لم ينظروا فيها نظرة إنصاف ، بل أعرضوا عنها وأصروا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسه تعالى وأهلكهم بذنوبهم وصاروا كأمس الدابر .

ولو كانت مشيئة الله لما كانوا عليه من الشرك تتضمن رضاه عن فاعلها وأمره بها لما عاقبهم عليها تصديقا لما قال الرسل ، كذلك لو كانت أعمالهم بالجبر الخارج لها عن كونها من أعمالهم ، لما استحقوا العقاب عليها ، ولما قال إنه أخذهم بذنوبهم ، وأهلكهم بظلمهم وكفرهم ونحو ذلك مما جاء فى كثير من الآيات .

فقوله : (حتى ذاقوا بأسنا) برهان دال على صدق الرسل فى دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم .

وبعد أن ذكرهم بالبرهان الواضح أمر رسوله أن يطالبهم بدليل يثبت ما يزعمون فقال :

(قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟) أى هل عندكم بما تقولون علم تعتمدون عليه وتحتجون به ، فتخرجوه لنا لتفهمه وتوازن بينه وبين ما جئناكم به من الآيات العنقية والوفائع المحكية عن الأمم قبلكم وتبين منها الراجح من المرجوح ؟ وفى هذا الاستفهام من التعجيز والتوبيخ مالا يخفى .

ثم قفى على ذلك ببيان حقيقة حالهم فقال :

(إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) أى إنكم لستم على شىء من العلم . بل ما تتبعون فى عقائدكم وآرائكم فى الدين والعمل به إلا الحدس والتخمين الذى لا يستقر عنده حكم .

وبعد أن نفى عنهم درجات العلم أثبت لذاته الحجة البالغة التى لا تلويها حجة فقال :

(قل فقله الحجة البالغة فو شاء هداكم أجمعين) أى قل أيها الرسول هؤلاء الجاهدين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم : إن لم يكن عندكم علم فى أمر دينكم ، فإن لله وحده أعلى درجات العلم وله الحجة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه فى هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة وسنن الله فى الاجتماع البشرى ، ولكن لا يهتدى بهذه الآيات إلا المستعد للهداية المحب للحق الحريص على طلبه الذى يستمع القول فيتبع أحسنه ، دون من أعرض عن النظر فيها استكباراً عنها وحسداً للمبلغ الذى جاء بها ، وجوداً على تقايد الآباء واتباع الرؤساء .

ونو شاء سبحانه أن يهديكم بغير هذه الطريق التى أقام أمر البشر عليها وهى التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال — هداكم أجمعين ، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كدلائكة المفطورين على الحق والخير وطاعة الله جل شأنه كما قال سبحانه عنهم : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ويجعل الطاعة فيكم بغير

شعور منكم ولا إرادة كما يجري الدم في أبدانكم ، أو مع الشعور بأنها ليست من أفعالكم ، وحينئذ لا تكونون من نوع الإنسان الذى قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعدا لعمل الخير والشر والحق والباطل ، ويرجح أحدهما على الآخر بالاختيار ، والاختيار لأحدهما بمشيئته ، لا ينفى مشيئة الله تعالى ولا يعارضها ، فإنه هو الذى شاء أن يجعله فاعلا باختياره .

ونحو الآية قوله : « وَأَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله : « مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ ، وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وقوله : « وَأَوْ شَاءَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » وقوله : « وَأَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وبعد أن نفى عنهم العلم وسجل عليهم اتباع الخرص والكذب ، ن يظهر لهم أنهم ليسوا على شيء يعتد به من العلم — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطاب مشركى قومه بإحضار من عساه يعتمدون عليه من الشهداء ، فى إثبات تحريم الله تعالى عليهم ما ادعوه من المحرمات فقال :

(قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أى أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن مشاهدة وعيان أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه .
والخلاصة - عيكم أن تحضروا من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأوامر الأحكام الدينية وغيرها بالأدلة الصحيحة التى تجعل النظريات العلمية كأنها مشاهدات حسية من يشهد لكم بصحة ما تدعون .

(فإن شهدوا فلا تشهد معهم) أى فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود فلا تصدقهم ولا تقبل لهم شهادة ، ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت على الباطل كالشهادة به .

(ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى ولا تتبع أهواء هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا المزعلة ، وبما أرشدت إليه من الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق .

(والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربرهم يعدلون) أى والذين هم مع جهنم واتباعهم للأهواء لا يؤمنون بالآخرة حتى يحملهم الإيمان بها على سماع الدليل والحجة إذا ذكروا بها ، ويشركون بربرهم ويتخذون له مثلاً وعدلاً يشاركه فى جلب الخير والنفع ودفع الضرر، إما استقلالاً وإما بحمله الرب على ذلك وتأثيره فى عمله وإرادته .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ،
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَأِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده جميع ما حرم عليهم من الطعام ، وذكر حجته البالغة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه عليهم ربهم ، ودحض شبهتهم التى احتجوا بها على شركهم بربرهم وافترائهم عليه .

ذكر فى هذه الآيات أصول الحرمات فى الأقوال والأفعال ، وأصول الفضائل وأنواع البر .

الإيضاح

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم فيما يحللون وما يحرمون لأنفسهم وللناس : أقبلوا إلى أيها القوم أقرأ لكم ما حرم ربكم عليكم فيما أوحاه إليّ ، وهو وحده له حق التحريم والتشريع ، وأنا مبلغ عنه بإذنه وقد أرسنتى بذلك .

وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا أعم ؛ لأن بيان الحرمات يستلزم حل ماعداها ، وقد بدأها بكبر الحرمات وأعظمها وأشدّها فسادا للعقل والفطرة ، وهو الشرك بالله ، سواء أكان باتخاذ الأنداد له أو الشفعاء المؤثرين في إرادته ، أو بما يذكر بهم من صور وتماثيل وأصنام وقبور ، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون في التشريع فيحللون ويحرمون فقال :

(١) (ألا تشركوا به شيئا) أى ومما أنلوه عليكم في بيان هذه الحرمات وما يقابلها من الواجبات — ألا تشركوا بالله شيئا من الأشياء وإن عظمت في الخلق كالشمس والقمر والكواكب ، أو في القدر كالملائكة والنبیین والصالحين ، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله ، مسخرة له بقدرته وإرادته : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » .

ويلزم هذا أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا ، لا تدخرون فيه وسعا ، ولا تأتون فيه جهدا ، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت ، فما بالك بالعقوق الذى هو من أكبر الكبائر وأعظم الآثام ، وقد جاء في القرآن غير مرة قرن التوحيد والنهى عن الشرك بالأمر بالإحسان إلى الوالدين .

وكفى دلالة على عظيم عناية الشارع بأمر الوالدين أن قرنه بعبادته وجعله

ثانيها فى الوصايا ، وأكده بما أكده به فى سورة الإسراء ، كما قرن شكرها بشكره فى سورة لقمان فى قوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » وما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » قلت ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .

والمراد ببرها احترامهما احترام المحبة والكرامة ، لا احترام الخوف والرهبة ، لأن فى ذلك مفسدة كبيرة فى تربية الأولاد فى الصغر ، وإلجاء لهم إلى العقوق فى الكبر ، وإلى ظلم الأولاد لهم كما ظلمهم آبائهم ، وليس لها أن يتجسسا فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا سيما تزويجهم بمن يكرهون ، أو منعهم من الهجرة لطب العلم النافع أو لكسب المال والجاه إلى نحو ذلك :

(٣) (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) أى ومما وصاكم به ربكم ألا تقتلوا أولادكم الصغار لفقر يحل بكم ، فإن الله يرزقكم وإياهم أى يرزقهم تبعاً لكم ، وجاء فى سورة الإسراء : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » .

وسر اختلاف الأسلوبين وتقديم رزق الأولاد هناك على رزق الوالدين على عكس ما هنا — أن ما هناك متعلق بالفقر المتوقع فى المستقبل الذى يكون فيه الأولاد كبارا كاسيين ، وقد يصير الوالدون فى حاجة إليهم لعجزهم عن الكسب بالكبر ، ففرق فى تعليل النهى فى الآيتين بين الفقر الواقع والفقر المتوقع ، فقدم فى كل منهما ضمان رزق الكاسب ، للايماء إلى أنه تعالى جعل كسب العباد سبباً للرزق ، لا كما يتوهم بعضهم فيزهد فى العمل بشبهة كفالاته تعالى لرزقهم .

(٤) (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أى ولا تقربوا ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال كالزنا وقذف المحصنات سواء منه ما فعل علناً وما فعل سراً ،

وقيل الظاهر ما تعلق بأعمال الجوارح ، والباطن ما تعلق بأعمال القلوب كالكبر والحسد والتفكير في تدبير المسكائد المضارة وأنواع الشرور والمآثم .

وقد روى عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بأساً بالزنا في السر ويستقبحونه في العلانية ، فحرم الله الزنا في السر والعلانية ، أى في هذه الآية وما أشبهها .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : ما ظهر منها ظلم الناس ، وما بطن منها الزنا والسرقة ، أى لأن الناس يأمنونها في الخفاء ، وروى عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش : ما ظهر منها وما بطن » رواه البخاري ومسلم .

(٥) (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) أى ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بالإسلام أو بعهده بين المسلمين وغيرهم كأهل الكتاب المقيمين بيننا بعهده وأمان ، وقد جاء في الحديث : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وروى الترمذي قوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح راحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفاً » .

وقوله إلا بالحق إجماع إلى أن قتل النفس قد يكون حتماً لجُرْم يصدر منها كالجاء في الحديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأمر ثلاثه : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » .

والخلاصة — إن قتلها بالحق هو أمر الشارع بإباحة قتلها كقتل القاتل عمداً أو قتل الزاني المحصن .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) الوصية أن يعهد إلى إنسان بعمل خير أو ترك شر ، ويقرن ذلك بوعظ يرجي تأثيره ؛ أى إنه سبحانه وصاكم بذلك ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمنفعة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، إذ هو مما تدركه العقول بأدنى تأمل .

وفى هذا تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وتحريم السوائب وغيرها مما لا تعقل له فائدة ، ولا تظهر فيه لذوى العقول الراجحة مصلحة .

(٦) (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بآتى هي أحسن) أى ولا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره ، أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه أو وصيه إلا بالفعلة التى هي أحسن فى حفظ ماله وتشهيره ، ورجحان مصلحته ، والإنفاق منه على تربيته وتعليمه مابه يصلح معاشه ومعاذه .

والنهي عن القرب عن الشيء أبغ من النهي عنه ، فإن الأول يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التى هي مظنة التأويل ، فيتعد عنها المتق ، ويستسيغها الطامع فيه ، إذ يراها بالتأويل من الوجوه الحلال التى لا تضر به أو يرجح نفعها على ضررها ، كمن يأكل شيئاً من ماله حين يعمل عملاً له فيه ربح ولولاه مارجح .

(حتى يبلغ أشده) والأشدُّ مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، ولبلوغه طرفان أدناها الاحتمال الذى هو مبدأ سن الرشد والقوة التى يخرج بها عن كونه يتيماً أو سفيهاً أو ضعيفاً ونهايته سن الأربعين ، والمراد هنا الأول كما قال الشعبي ومالك وآخرون : ويكون ذلك عادة بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة .

أى احفظوا مال اليتيم ولا تسمحوا له بتبذير شيء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه حتى يبلغ ، فإذا بلغ فسلموه إليه ، وهذا نظير قوله : « فَإِنْ آتَسَّمُ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » .

والخلاصة — إن المراد النهي عن كل تعدى على مال اليتيم وهضم لحقوقه من الأوصياء وغيرهم حتى يبلغ سن القوة بدناً وعملاً ، إذ قد دلت التجارب على أن الحديث العهد بالاحتمال يكون ضعيف الرأى قليل الخبرة بشئون المعاش يخدع كثيراً فى المعاملات .

وقد كان الناس في الجاهلية لا يحترمون إلا القوة ، ولا يعرفون الحق إلا للأقوياء
ومن ثم بالغ الشارع في الوصية بالضعيفين : المرأة ، واليتيم .

والقوة التي يحفظ بها المرء ماله في هذا العصر هي ائزان الفكر ، والرشد العقلي
والأخلاق بكثرة المران والتجارب في المعاملات ، لكثرة الفسق والحيل ووجود
أعوان السوء الذين يوسوسون إلى الوارثين ويزينون لهم الإسراف في اللذات
والشهوات على جميع ضروبها حتى لا يتركوهم إلا وهم فقراء ، وقسا يستيقظون من
غفلتهم إلا إذا بغوا سن الكهولة التي يكمل فيها العقل وينفقهون تكاليف الحياة
ويهتمون فيها بأمر النسل .

وقد شرط الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم ببلوغ سن الحلم وظهور الرشد
في المعاملات المائية بالاختبار كما سلف في سورة النساء من قوله : « وَابْتَكَوْا
الْيَتَامَى » الآية .

(٧) (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أى وأتموا الكيل إذا كلمتم للناس
أو اكلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم
فيما تبيعون ، فليكن كل ذلك وافيا تاما بالعدل ، ولا تكونوا من أولئك المطففين
الذين وصفهم الله بقوله : « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ
أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ » .

والخلاصة — إن الإيفاء يكون من الجانبين : حين البيع ، وحين الشراء ،
فيرضى المرء لغيره ما يرضاه لنفسه . وقوله : (بالقسط) يدل على تحرر العدل في الكيل
والميزان حال البيع والشراء بقدر المستطاع .

(لا تكلف نفسا إلا وسعها) أى إن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا ما يسعها فعله ،
بأن تأتبه بلا عسر ولا حرج ، فهو لا يكلف من يبيع أو يشتري الأقوات ونحوها أن
يزنها أو يكيلها بحيث لا تزيد حبة ولا مثقالا ، بل يكلفه أن يضبط الوزن والكيل له
أو عليه سواء بحيث يعتقد أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص يعتقد بهما عرفا .

والقاعدة الشرعية : أن التكليف إنما يكون بما فى وسع المكلف بلا حرج ولا مشقة عليه ، ولو اتبع المسلمون هذه الوصية وعملوا بها لاستقامت أمور معاملاتهم وعظمت الثقة والأمانة بينهم ، ولكن وأسفا فسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم ، ووثقوا بغيرهم لاتباعهم هذه الوصية وأمثالها .

وقد قص علينا الكتاب الكريم قصص من طففوا الكيل والميزان فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر بما كان من ظلمهم ، كقوم شعيب وقد حكى الله عنهم ما قال لهم نبيهم شعيب : « وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان : « إِنَّكُمْ وَلَيْتُمْ أَمْرًا هَلَكْتَ فِيهِ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ » .

(٨) (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) أى وعليكم أن تعدلوا فى القول إذا قلتم قولاً فى شهادة أو حكم على أحد ، ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة منكم ، إذ بالعدل تصلح شئون الأمم والأفراد ، فهو ركن ركين فى العمران ، وأساس فى الأمور الاجتماعية ، فلا يحل لمؤمن أن يجابى فيه أحدا لقرابة ولا غيرها ، فالعدل كما يكون فى الأفعال كالوزن والكيل يكون فى الأقوال .

ونحو الآية قوله : « يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » وقوله : « يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ » .

(٩) (وبعد الله أوفوا) أى وأوفوا بعهد الله ، وهذا شامل لما يأتى :

(١) ما عهده الله تعالى إلى الناس على السنة الرسل .

(ب) ما آتاهم من العقل والوجدان والفطر السليمة كما قال : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ » وقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ » .

(ح) ما عاهده الناس عليه كما قال : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ »
وقال : « أَوْ كَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنْهُم » .

(د) ما عاهد الناس عليه بعضهم بعضاً كما قال في وصف المؤمنين : « وَالْمُؤْمِنُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا » .

فمن آمن برسول من رسله فقد عاهد الله حين الإيمان به أن يمثل أمره ونهيه ،
وما شرعه للناس ووصاهم به فهو مما عاهده إليهم ، وما التزمه الإنسان من عمل البر
ببذر أو يمين فهو عهد عاهد عليه ربه كما قال تعالى ناعياً على المنافقين سوء فعلهم :
« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ،
فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ » الآية ، وكذلك من عاهد السلطان وبايعه على
الطاعة في المعروف ، أو عاهد غيره على القيام بعمل مشروع ، وجب عليه الوفاء إذا
لم يكن من قبيل المعصية .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة
من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ،
وإذا خاصم فجر » .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) التذكير يطلق حيناً على تكلف ذكر
الشيء في القلب أو التدرج فيه بفعله المرة إثر الأخرى ، وحيناً على الاعتاض والتدبر
كما قال تعالى : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » وقال : « سَيَذَكَّرُ مَنْ يَتُحْشَى » .

والخلاصة -- إن ذلك الذي تلوته عليكم من الأوامر والنواهي وصاكم الله به
رجاء أن يذكره بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذي أمر الله به في مثل قوله :
« وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » لما فيه من مصالح ومنافع كتدارك النسيان
والغفلة من كثرة الشواغل الدنيوية ، أو رجاء أن يتعظ به من سمعه وقرأه .

(١٠) (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) أى وإن هذا القرآن الذى أدعوكم إليه وأدعوكم به إلى ما يحبيكم ، هو صراطى ومنهاجى الذى أسلكه إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدنيا والآخرة ، حال كونه مستقيماً لا يضل سالكه ، ولا يهتدى تاركه ، فاتبعوه وحده ، ولا تتبعوا السبل الأخرى التى تخالفه وهى كثيرة ، فتتفرق بكم عن سبيله ، بحيث يذهب كل منهم فى سبيل ضلالة ينتهى بها إلى الهلكة ، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال .
والخلاصة — إن هذا صراطى مستقيم لا عوج فيه ، فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج ، وترجعون الهدى على الضلال .

أخرج أحمد والنسائى وأبو الشيخ والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : « خط رسول الله خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .
وروى أحمد والترمذى والنسائى مرفوعاً : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من جوف الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » .

وجعل الصراط المستقيم واحداً ، والسبل الخالفة متعددة ، لأن الحق واحد والباطل وهو ما خالفه كثير ، فيشمل الأديان الباطلة سواء أكانت وضعية أو سماوية محرقة أو منسوخة .

ونهى عن التفرق فى صراط الحق وسبيله ، لأن التفرق فى الدين الواحد وجعله

مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ويخطئون من خالفه ويرمون أتباعه بالجهل والضلال — سبب لإضاعته ، إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ويظهرها على مخالفها ، ولا يهتمها إثبات الحق وفهم النصوص ، والحق لا يكون وقفا على عالم معين ولا على أتباعه ، بل كل باحث يخطئ ويصيب ، وذلك ما دل عليه العقل وأثبتته الكتاب والسنة والإجماع .

ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعز أهل الحق — كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلم وضياح حقهم .

روى ابن جرير عن ابن عباس في قوله : « ولا تتبعوا السبل » قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات .

(ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه ، وقد ذكرت في القرآن في سياق الأوامر والنواهي المختلفة من عبادات ومعاملات وآداب وعشرة وزواج ، وتفسر في كل موضع بما يناسبه .
أى ذلك الأمر باتباع صراط الحق المستقيم ، والنهي عن سبل الضلالات والأباطيل ، وصاكم ربكم به ، ليهيئكم لاتقاء كل ما يشقى ويردى في الدنيا والآخرة ، ويوصلكم إلى السعادة العظمى والحياة الصالحة .

وقال الرازى : ختمت الآية الأولى بقوله : لعلكم تعقلون ، والثانية بقوله : لعلكم تذكرون ، لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس الحرة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها ، فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها ، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالانصاف به ، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان .

وقال أبو حيان : ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وقد أمر

سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ، ختم الآية الثالثة بالتقوى التى هى انقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .

وقد وردت أحاديث كثيرة بشأن هذه الوصايا نقلها الحفاظ الثقات فمن ذلك :

(١) ما أخرجه الترمذى وحسنه وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن

مسعود قال : من سره أن ينظر الى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات (قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم — إلى قوله — تتقون) .

(٢) ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أياكم يباعدنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا : قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم ، إلى ثلاث آيات ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه » .

(٣) ما أخرجه عبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر عن منذر الثورى قال : قال الربيع بن خثيم : « أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد صلى الله عليه وسلم بخاتمه ؟ قلت نعم ، فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام : (قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم) إلى آخر الآيات » .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ بِإِِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى

مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحجب العقلي على أصول هذا الدين ودحض شبهات المعاندين ،
وقف على ذلك بذكر الوصايا العشر في الآيات الثلاث التي قبل هذه الآيات .
نبه هنا إلى مكانة القرآن من الهداية وإلى وجوب اتباعه ، وذكر أعذار
المشركين بما يعلمون أنها لا تصح لهم عذرا عند الله ، وافتتح هذا التنبيه والتذكير
بذكر ما يشبه القرآن في التشريع ويسير على نهجه في الهداية ، وهو كتاب
موسى عليه السلام الذي اشتهر عند مشركى العرب وعرفوا بالسماع خبره .

الإيضاح

(ثم آتينا موسى الكتاب) فى الكلام تقدير لفظ (قل) أى قل أيها الرسول
لهؤلاء الناس : تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ووصاكم به وهو كذا وكذا - ثم قل
لهم وأعلمهم أننا آتينا موسى الكتاب ... إلى آخره .

وقد تكرر فى الكتاب الكريم قرنه بالتوراة لما بينهما من التشابه ، فكل
منهما شريعة كاملة ، والإنجيل والزبور ليسا كذلك ، فإن أكثر الإنجيل عظات
وأمثال ، وأكثر الزبور ثناء ومناجاة - إلى أن العرب كانوا يعلمون أن اليهود لهم
كتاب يسمى التوراة ، وهم رسول يسمى موسى ، وأنهم أهل علم ، وكان يتمنى كثير
من عقلائهم لو أتيح لهم كتاب كما أوتى اليهود التوراة ، وأنه لو جاءهم كتاب
لكانوا أهدي منهم ، وأعظم انتفاعا به ، لما يمتازون به من الذكاء وحصافة العقل
ورجاحة الرأى .

ولما أخبر سبحانه عن القرآن بقوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ »
 قفى بمدح التوراة ، كما جاء مثل هذا فى قوله : « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا
 وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَزَبِيَّا » وقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ
 الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ » ثم قال : « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
 مُبَارَكٌ » الآية .

وهذه الوصايا العشر التى فى الآيات الثلاث ، والتى لها نظير فى سورة الإسراء -
 كانت أول ما نزل بمكة قبل تفصيل أحكام العبادات والمعاملات فى السور المدنية ،
 وكذلك كانت أول ما نزل على موسى من أصول دينه ، لكن وصايا القرآن أجمع
 للمعانى فهى تبلغ العشرات إذا فصلت .

وهذه الوصايا وما أشبهها هى أصول الأديان على ألسنة الرسل ، يرشد إلى ذلك
 قوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى . »

وليس هذا الدين المشترك الذى أوصى به هؤلاء أنزل الكرام إلا التوحيد
 ومكارم الأخلاق والتباعد عن الفواحش والمنكرات .

(تماما على الذى أحسن) أى آتيناه الكتاب تماما للنعمة والكرامة على من
 أحسن فى اتباعه واهتدى به ، كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
 لَمَّا صَبَرُوا » وقوله : « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى
 جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

وقد يكون المعنى - آتيناه الكتاب تماما كاملا جامعا لما يحتاج إليه من
 الشرائع كقوله « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وتفصيلا لكل شىء) أى مفصلا لكل شىء من أحكام الشريعة عباداتها

ومعاملاتها ، مدنية كانت أو حربية أو جنائية ، وهذا كقوله في صفة القرآن :
« وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » .

(وهدى ورحمة) أى ودليلا من دلائل الهداية إلى الحق ، وسببا من أسباب الرحمة لمن اهتدى به ، فينجيه الله من الضلالة ، وعى الخيرة .

(لعلهم يلقاء ربهم يؤمنون) أى آتياه الكتاب جامعا لكل ما ذكر ، ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله تعالى ، وموضع الفوز في دار الكرامة ، تلك الدار التي أعدها الله لمن اهتدى بوجيه .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أى وهذا القرآن الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه — كتاب عظيم شأنه ، أنزلناه بواسطة الروح الأمين ، كما أنزلنا الكتاب على موسى ، وهو مبارك أى كثير الخير ديننا ودنيا ، جامع لأسباب الهداية الدائمة ، وقد جاء بأكثر مما فى كتاب موسى من تفصيل لهدى البشر فى معاشهم ومعادهم .

(فاتبِعُوا وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أى فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، وحذركم إياه ، لتكون رحمة مرجوة لکم فى الدنيا والآخرة .

(أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) الدراسة : القراءة والعلم كما جاء فى قوله : « وَدَرَسُوا مَا فِيهِ » أى علموا ما فيه ولم يأتوه بجهالة .

أى أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله ، وطريق طاعته ، وتركية النفوس من أدران الشرك ، لئلا تقولوا يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم وإجرامكم : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وهما اليهود والنصارى ، وقد كنا عن تلاوتهم للكتاب الذى أنزل عليهم غافلين ، لأندرى ماهى لعدم فهمنا ما يقولون لأنها بلسان غير لساننا ، ولأنهم أهله دوننا ، ولأننا لم نؤمر بما فيه ، ولغاية الأمية علينا .
(أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أى ولئلا تقولوا : لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين قبلنا ، فأمرنا بما فيه ونهينا

عما نهى عنه ، وبين لنا خطأ ما نحن فيه — نكنا أهدي منهم ، لأننا أذكي منهم أفئدة ، وأمضى عزيمة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا في قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ » أى من إحدى الأمم المجاورة لهم من أهل الكتاب .

فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل تَعَلَّة ، دافع لكل اعتذار فقال :
(فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) البينة فى اللغة ما بين الحق ، أى فقد جاءكم كتاب مبين للحق بالحجج والبراهين فى العقائد والفضائل والآداب وأهيات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع ، وهو هادٍ لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ؛ إذ ينجذب ببلاغته وبيانه قلوب الناظرين فيه إلى الحق الذى فصله أتم تفصيل وإلى عمل الخير والصالح الذى بين فوائده ومنافعه ، وهو رحمة عامة لمن يستضيئون بنوره ، وتنفذ فيهم شريعته ، إذ هم يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم ، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات .

(فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) صدف ، أعرض : أى وإذا كانت هذه الآيات مشتملة على الهداية الكاملة ، والرحمة الشاملة ، فلا أظلم ممن كذب بها وأعرض عنها ، أو لم يكتف بذلك ، بل صرف الناس عنها كما كان يفعل كبراء مجرمى قريش بمكة ، فقد كانوا يصدفون العرب عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحولون بينه وبينهم ، لئلا يسمعوها منه القرآن فينجذبوا إلى الإيمان .
ونحو الآية قوله : « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » .

(سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) أى سنجزى الذين يصدفون الناس عن آياتنا ويردونها عن الاهتداء بها سوء العذاب بسبب ما كانوا يحزون عليه من الصدف عنها ، إذ هم بذلك يحملون أوزارهم وأوزار من صدفهم عن الحق ، وحالوا بينهم وبين الهداية .

ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ » أى زدناهم عذابا شديدا بصددهم الناس عن سبيل الله فوق العذاب على كفرهم بسبب إفسادهم فى الأرض بهذا الصد عن الحق .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ؟ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ، قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه إنما أنزل الكتاب إزالة للعذر ، وإزاحة للعبة ، وقرن هذا الإعذار بالإبذار الشديد والوعيد بسوء العذاب .
 قفى على ذلك ببيان أنه لا أمل فى إيمانهم البتة ، وفصل ما أمامهم وأمام غيرهم من الأمم وما ينتظرونه فى مستقبل أمرهم ، وأنه غير ما يمتنون من موت الرسول وانطفاء نور الإسلام بموته صلوات الله عليه .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)
 ينظرون أى ينتظرون ، والمراد بالملائكة ملائكة الموت الذين يقبضون أرواحهم ، والمراد بإتيان الله إتيان ما وعد به من النصر لأحبابه وأوعد به أعداءه من العذاب فى الدنيا كما جاء فى قوله : « فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ كَمْ يَحْتَسِبُوا » الآية . وإتيان أمره هو جزاؤهم على نحو ما جاء فى قوله : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ

أَمْرُ رَبِّكَ ؟ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

والخلاصة — إنهم لا ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة : مجيء الملائكة أو مجيء ربك على حسب ما اقترحوا بقولهم : « لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » وقولهم : « أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » أو مجيء بعض آيات ربك غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا » ونحو ذلك من الآيات العظام التي علقوا بها إيمانهم .

وفي الآية إيماء إلى تماديهم في تكذيب آيات الله ، وعدم اعتدادهم بها ، وأنه لا أمل في إيمانهم البتة .

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) أى يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطرارى لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ ، ولا نفسا لم تكن كسبت في إيمانها خيرا وعملا صالحا أن تفعل ذلك بعد مجيئها ، لبطلان التكليف الذى يترتب عليه ثواب الأعمال ، إذ التكليف يستدعى الإرادة والاختيار فالتكليف من الإيمان والكفر وعمل الخير والشر ، وبذا يكون الثواب والعقاب .

وبعض هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبل خروج الروح ، وبعضها لا يطلعون عليه إلا قبيل يوم القيامة حين مجيء أشراط الساعة .

وقد وردت أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف الذى لا يصلح وحده أن يكون حجة ، أن المراد ببعض الآيات هو طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة التى ترج الأرض رجاً وتبس الجبال بسا ، ويبطل هذا النظام الشمسى بحدوث حادث تتحول فيه حركة الأرض اليومية ، فيكون الشرق غربا والغرب شرقا . أخرج البخارى فى تاريخه وأبو الشيخ فى العظمة وابن عساكر عن كعب الأحبار

قال : « إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب (يريد المحور) فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها » . وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا » وأخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » .

(قل انتظروا إنا منتظرون) أى قل لهم : انتظروا أيها المعاندون وما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من اختفاء أمر الإسلام . إنا منتظرون وعد ربنا لنا ووعيده لكم ، ونحو الآية قوله : « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وفى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى ، وهو كقوله : « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن وصى سبحانه هذه الأمة على لسان رسوله باتباع صراطه المستقيم ، ونهى عن اتباع غيره من السبل ، ثم ذكر شريعة التوراة المشابهة لشريعة القرآن ووصاياه ، ثم نلا ذلك تذكيره لهم ولسائر الخطابين بالقرآن بما ينتظر آخر الزمان من الحوادث الكونية للأفراد والأمم .

قنى على ذلك بتذكير هذه الأمة بما هي عرضة له على حسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التى تجعلها أحزابا وشيعا تتعصب كل منها لمذهب أو إمام ، فيضيع الحق وتنقسم عرا الوحدة ، وتصبح بعد أخوة الإيمان أمما متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم .

وقد ذهب بعض مفسرى السلف إلى أن الآية نزلت فى أهل الكتاب إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ، وكل منها مذاهب تتعصب لها ، شيع مختلفة يتعادون ويتقاتلون فيه ، وذهب بعض آخر إلى أنها نزلت فى أهل البدع والفرق الإسلامية والمذاهب التى استحدثت فزقت وحدة الأمة .

ولامانع من الجمع بين الرأيين ، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم وأمر من استجاب لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم ، كما جاء فى سورة آل عمران : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ثم بين أن رسوله برىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب ، فهو يحذر من صنيعهم ، وينهى عن سلوك طريقهم ، فمن اتبع سنتهم فى هذا التفريق فالرسول برىء منه ، كما هو برىء من أولئك المفرقين من سائى الأمم .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد أنزل عليه (إن الذين فرقوا دينهم) الآية .

وأخرج رواية التفسير بالمأثور عن أبى هريرة فى قوله : (إن الذين فرقوا دينهم) الآية قال هم فى هذه الأمة . وأخرج الترمذى وابن أبى حاتم والبيهقى وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء

ليس لهم توبة ، أنا منهم برىء وهم منى برءاء » وليس المراد بنفى التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطوهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم ، بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب ، وسواهم على الباطل .

والخلاصة — إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أهل الكتاب ، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم ، ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه برىء ، إذ ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الكفر وأفعالهم ليس خاصا بهم ، بل إذا اتصف المسلمون بمثل ما اتصفوا به كان حكمهم حكمهم ، لأن الله لا يبيح للمسلمين البدع والضلالات والتفرق في الدين لأنهم مسلمون ، فإن ذلك يكون هدماً لأسس الدين ، وخروجاً من سنن المهتدين .

ولدى التحقيق والبحث نجد أن أسباب التفرق في هذه الأمة في دينها وتبعه ضعفتها في دنياها ترجع إلى أمور :

(١) التنازع على الملك ، وقد حدث هذا من بدء الإسلام واستمر حتى وقتنا هذا
(٢) العصبية الجنسية والنصرة القومية في كل شعب وقبيل ، إذ شتم كل شعب بأنفه وأبى أن يخضع لغيره اعتقاداً منه أنه أرقى الشعوب أرومة ، وأرفعها محتداً ، فأتى له أن ينقد لسواه ؟

(٣) عصبية المذاهب والآراء في أصول الدين وفروعه ، فأرباب المذاهب من الشيعة ذموا بقية المذاهب الأخرى كالحنفية والشافعية ، ورجال الحديث تكلموا في أهل القياس .

(٤) القول في الدين بالرأى ، فإن كثيراً ممن يركن إليهم في الفتيا واستنباط الأحكام الدينية ضعيف عن حمل السنة والفقه في فهم الكتاب ، فإذا عرضت له حادثة ولم يفتن إلى مأخذها من الكتاب أو السنة أفتى فيها بالرأى ، وقد يكون

مصادما للدلائل النقلى أو لفتاوى الصحابة والتابعين — إلى أن آراء الناس تختلف باختلاف الزمان والمكان وشئون المعيشة وأحوال الاجتماع ، فأنى تتفق الألوف الكثيرة من الشعوب المختلفة فى الأزمنة المتعاقبة ؟ .

(٥) دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له ووضع كثير من الأحاديث التى نفقت لدى بعض رجال الدين واتخذوها مرجعا فى استنباط بعض الأحكام ، والدين منها براء . (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء) أى إن الذين فرقوا دينهم فأفروا ببعض وكفروا ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، إذ تفرقوا فرقا وكفر بعضهم بعضا ، وأخذوا بعضا وتركوا بعضا كما أخبر بذلك الكتاب الكريم بقوله : « أَفَتَوْفُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ » .

وقوله : لست منهم فى شيء ، أى إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم ، والله يتولى جزاءهم ، كما قال : (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) أى إنه تعالى هو الذى يجازيهم على مفارقة دينهم والتفريق له بما اقتضت به سنة الله من ضعف المتفرقين ، وفشل المتنازعين ، وتسليط الأقوياء عليهم ، وإذاعة بعضهم بأس بعض كما بين ذلك سبحانه بقوله : « وَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » أى إنه بعد أن يعذبهم بأيديهم وأيدي أعدائهم فى الدنيا يبعثهم فى الآخرة ، ثم ينبئهم عند الحساب بما كانوا يفعلون فى الدنيا من الاختلاف والتفرق اتباعا للأهواء ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء فى النار وبئس القرار .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن بين في السورة أصول الإيمان ، وأقام عليها البراهين ، وفند ما يورده الكفار من الشبهات ، ثم ذكر في الوصايا العشر أصول الفضائل والآداب التي يأمر بها الإسلام وما يقابلها من الرذائل والفواحش التي ينهى عنها .
بين هنا الجزاء العام في الآخرة على الحسنات وهي الإيمان والأعمال الصالحة ، وعلى السيئات وهي الكفر والفواحش ما ظهر منها وما بطن .

الإيضاح

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى من جاء ربه يوم القيامة بالخصلة الحسنة من خصال الطاعات التي فعلها وقلبه مطمئن بالإيمان فله عنده عشر حسنات أمثالها من عطائه غير المحدود .

وهذه العشر لا يدخل فيها ما وعد به من المضاعفة لمن يشاء على بعض الأعمال كالنفقة في سبيله ، إذ قد وعد بالمضاعفة عليها دون قيد في قوله : « إِنَّ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » ووعد بمضاعفة كثيرة في قوله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعَفْ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » ووعد بالمضاعفة سبعمائة ضعف في قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وفي هذا إشارة إلى تفاوت المنفقين وغيرهم من الحسنيين في الصفات النفسية كالإخلاص في النية والاحتساب عند الله والإخفاء سترًا على المعطى وتباعدًا من الشهرة ، والإيداء لحسن القدوة ، وتحرى المنافع والمصالح ، وما يقابل ذلك من الصفات الرذيلة كالرياء وحب الشهرة الباطلة والمن والأذى .

والخلاصة — إن العشرة تعطى لكل من أتى بالحسنة ، والمضاعفة فوقها تختلف على حسب مشيئته تعالى بما يعلم من أحوال المحسنين ، فمن بذل الدرهم ونفسه كثيئة على فقده ، لا تكون حاله كمن يبذله طيبة به نفسه ، مسرورة بتوفيق الله على عمل الخير ونيل ثواب الآخرة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) أى ومن جاء بالخصلة السيئة وعليها طابع الكفر تكنفها الفواحش والمنكرات ، فلا يجزى إلا عقوبة سيئة مثلها على حسب سننه تعالى فى تأثير الأعمال السيئة فى إفساد النفس وتدسيثها .

(وهم لا يظلمون) الظلم النقص من الشيء كما جاء فى قوله تعالى : « كِتَابُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُ كُتُبًا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا » أى إن كلا الفريقين فاعلى الحسنات والسيئات لا يظلم يوم الجزاء ، لامن الله ؛ لأنه منزّه عن الظلم عقلا ونقلا فقد روى مسلم من حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا » الحديث ، ولا من غيره إذ لا سلطان لأحد من خلقه ولا كسب فى ذلك اليوم يمكنه من الظلم كما يفعل الأقوياء الأشرار فى الدنيا بالضعفاء ، وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » .

والمراد من كتابة الله لها أمره الملائكة بكتابتها كما ورد فى حديث أبى هريرة مرفوعا قال : « يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فآ كتبوها عليه بمثلها ، وإن تركها من أجل فآ كتبوها له حسنة ،

وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكْتُبْهَا لَهُ حَسَنَةً ، فإن عملها فاكْتُبْهَا لَهُ
بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ « وفي هذا الحديث بيان للسبب في كتابة السيئة
حسنة ، وأن ذلك إنما كان لخلافة النفس بكفها عن عمل السيئة من أجل ابتغاء
رضوان الله واتقاء سخطه وعذابه .

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبَنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ
كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَىهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا
آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) .

شرح المفردات

قِيمًا ، أى يقوم به أمر الناس في معاشهم ومعادهم ، خنيفاً أى مائلاً عن الأديان
الباطلة ، والنسك العبادة ، ومحياى ومماتى لله : أى وما آتته في حياى وما أموت عليه
من الإيمان والعمل الصالح كله لله رب العالمين ، الوزر لغة الحمل الثقيل ، ووزره يزره
حمله يحمله ، والخلائف واحدتهم خليفة ، وهو من يخلف من كان قبله في مكان أو عمل
أو ملك ، والابتلاء الاختبار والامتحان .

المعنى الجملى

لما كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين مع إفامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها ، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم - جاءت هذه الخاتمة آمرة له صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم قولاً جامعاً لجملة ما فصل فيها - وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم دون ما يدعيه المشركون وأهل الكتاب الحرّفون ، وأنه صلى الله عليه وسلم مستمسك به معتصم بحبله يدعو إليه قولاً وعملاً على أكمل الوجوه ، وهو أول الخاصين وأخشع الخاشعين ، وهو الذى أكمل هذا الدين بعد انحراف جميع الأمم عن صراطه .

ثم بين أن الجزاء عند الله على الأعمال ، وأن لا تزوارز ووزر أخرى ، وأن المرجع إليه تعالى وحده ، وأن له سنناً فى استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم ، وأن الله وحده هو الذى يتولى عقاب المسيئين ورحمة الحسنين ، فلا ينبغي الاتكال على الوسطاء ولا الشفعاء بين الله والناس فى غفران الذنوب وقضاء الحاجات كما هى عقيدة أهل الشرك أجمعين .

الإيضاح

(قل إني هدى ربي إلى صراط مستقيم) أى قل أيها الرسول لقومك ولسائر البشر : إن ربي أرشدنى بما أوحاه إلىّ بفضلته ، إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اشتباه ، يهذى سالكه إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الذى أدعوكم إلى طلبه منه تعالى حين تناجونه فتقولون : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » .

(ديناً قيماً) أى إن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذى به يقوم أمر الناس فى معاشهم ومعادهم وبه يصلحون .

(ملة إبراهيم حنيفاً) أى الزموا ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً مانثلاً عن جميع ما سواه من الشرك والباطل .

(وما كان من المشركين) أى إنه منزّه عن الشرك وما عليه المبطلون ، وفيه تكذيب لأهل مكة القائلين إنهم على ملة إبراهيم وهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، واليهود الذين يقولون: عزير ابن الله ، والنصارى الذين يقولون: عيسى ابن الله ، وهذا كقوله: « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » .

هذا الدين هو دين الإخلاص لله وحده ، وهو الدين الذى بعث به جميع رسله وقرره فى جميع كتبه ، وجعله ملة إبراهيم لأنه هو النبى الذى أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه مشركو العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكانت قریش ومن لفّ لفّها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء مدعين أنهم على ملة إبراهيم وهكذا فعل أهل الكتاب حين ادعوا اتباعه واتباع موسى وعيسى عليهما السلام كما قال : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) المراد بالصلاة ما يشمل المفروض منها والمستحب ، والنسك : العبادة ، والناسك : العابد ، وكثر استعماله فى عبادة الحج ، والمراد من كون محياه ومماته لله أنه قد وجه وجهه وحصر نيته وعزمه فى حبس حياته لطاعته ومرضاته وبذلها فى سبيله ، فيموت على ذلك كما يعيش . والآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التى هى غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لماته ، ويكون فيها الإخلاص لله رب العالمين .

فينبغى للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله ، فيتحرى الخير والصلاح والإصلاح فى كل عمل من أعماله ، ويطلب الكمال فى ذلك لنفسه رجاء أن يموت ميتة ترضى ربه ، ولا يحرص على الحياة لذاتها ، فلا يهرب الموت ، فيمتنع عن الجهاد فى سبيل الله ، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل فيأخذ على أيدي أهل الجور ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وأفرد الصلاة بالذكر مع دخولها في النسك ، لأن روحها وهو الدعاء وتعظيم المعبود وتوجه القلب إليه والخوف منه ، مما يقع فيه الشرك ممن يغفلون في تعظيم الصالحين وما يذكر بهم كقبورهم وصورهم وتمثيلهم .

والخلاصة — إنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لله رب العباد وخالقهم ، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه كان مشركا ، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم .

(لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) أى لا شريك له في ربوبيته فيستحق أن يشركه في العبادة ويتوجه إليه معه للتأثير في عبادته ، وبذلك أمرني ربي ، وأنا أول المسلمين المتقادين إلى امتثال ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

وفي هذا بيان إجمالي لتوحيد الألوهية بالعمل بعد بيان أصل التوحيد في العقيدة ثم انتقل إلى برهانه الأعلى ، وهو توحيد الربوبية بما أمر به فقال :

(قل أغير الله أبغى ربنا وهو رب كل شيء) أى أغير الله الذى خلق الخلق ورباهم — أطلب ربا آخر أشركه في عبادتي له بدعائه والتوجه إليه ، لينفعى أو يمنع الضر عنى أو يقربنى إليه زلتى ، وهو تعالى رب كل شيء مما عبد ومما لم يعبد ، فهو الذى خلق الملائكة والمسيح والشمس والقمر والكواكب والأصنام كما قال : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

وإذا كان الله هو الخالق والمدير فكيف أسفه نفسى وأكفر بربى بجعل الخلق المرئوب مثلى ربألى ، وجميع المشركين يعترفون بأن معبوداتهم مخلوقة لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين .

(ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تكسب كل نفس إنما إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب كما قال : « لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَآيَهَا مَا اكْتَسَبَتْ » أى دون ما كسب أو اكتسب غيرها .

والخلاصة — إن الدين أرشدنا أن نجري على ما أودعته الفطرة في النفوس من أن سعادة الناس وشقاءهم في الدنيا بأعمالهم ، والعمل يؤثر في النفس التأثير الذي يزيها إن كان صالحا ، أو التأثير الذي يفسدها إن كان سيئا والجزاء مبني على هذا التأثير ، فلا ينتفع أحد ولا يتضرر بعمل غيره .

ومن كان قدوة صالحه في عمل أو معلما له فإنه ينتفع بعمل من أرشدهم بقوله أو فعله زيادة على انتفاعه بأصل ذلك القول أو الفعل ، ومن كان قدوة سيئة في عمل أو دالا عليه ومغريا به ، فإن عليه مثل إثم من فعله ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذا بقوله : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم .

وهذه قاعدة من أصول كل دين بعث الله به رسله كما جاء في سورة النجم : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ النَّبِيِّينَ ، أَنْ لَا تُزْرَ وَازِرَةٌ وَزْرَ آخَرِي ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح في المجتمع البشري ، وهادمة للأسس الوثنية ، وهادية للناس جميعا إلى ما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فإن العمل وحده هو وسيلة الفوز وطريق النجاة ، لا كما يزعم الوثنيون من طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب ، وهي وساطة بعض المخلوقات الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس ورجلهم ، ليعطيهم ما يطلبون في الدنيا بلا كسب ولا سعي من طريق الأسباب التي جرت بها سنته في خلقه ، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبوا بها ، أو ليحملوا الخالق على رفعها عنهم وترك عقابهم عليها ، وعلى إعطائهم نعيم الآخرة وإنقاذهم من عذابها .

ومما ينتفع به المرء من عمل غيره — لأنه في الحقيقة كأنه عمله إذ كان سببا فيه — دعاء أولاده ، وحجهم وتصدقهم عنه ، وقضاؤهم لصومه كما ورد في الحديث :

« إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة .

ذاك أن الله قد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص الكتاب ، وصح في السنة أن ولد الرجل من كسبه :

ومن هذا تعلم أن ما جرت به العادة من قراءة القرآن والأذكار وإهداء ثوابها إلى الأموات واستئجار القراء وحبس الأوقاف على ذلك — بدعة غير مشروعة ، وكذا إسقاط الصلاة ، إذ لو كان لذلك أصل في الدين لما جهله السلف ، ولو علموه لما أهملوا العمل به .

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختفون) أى ثم إن رجوعكم في الحياة الآخرة إلى ربكم دون غيره مما عبدتم من دونه ، فينبئكم بما كنتم تختفون فيه من أمر أديانكم المختلفة ، ويتولى جزاءكم عليه وحده على حسب علمه وإرادته القديمين ، ويضل عنكم ما كنتم تزعمون من دونه .

ونحو الآية قوله : « إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَارْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهَا تَخْتَفُونَ » .

(وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) أى إن ربكم الذى هو رب كل شىء هو الذى جعلكم خلائف هذه الأرض بعد آدم قد سبقت ، وفي سيرها عبر وعظات لمن اذكر وتدبر ، وكذلك هو قد رفع بعضكم فوق بعض درجات في الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، ليختبركم فيما أعطاكم أى ليعاملكم معاملة المختبر لكم في ذلك ، ويبنى الجزاء على العمل ، إذ قد جرت سنته في أن سعادة الناس أفرادا وجماعات في الدنيا والآخرة أو شقاءهم فيها تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم .

وجاء في معنى الآية قوله : « وَبَلَّوْا نَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »

وقوله : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَنْبَازُوهُمْ أَهْلَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »
وقوله : « وَلَتَنْبُوْا نَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْعَاصِرِينَ وَتَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ ».

(إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) أى إنه تعالى سريع العقاب لمن كفر به أو كفر بنبية وخالف شرعه وتنكب عن سنته ، وهذا العقاب السريع شامل لما يكون فى الدنيا من الضرر فى النفس أو العقل أو العرض أو المال أو غير ذلك من الشئون الاجتماعية ، وهذا مطرد فى الدنيا فى ذنوب الأمم ، وأكثرى فى ذنوب الأفراد ، ومطرد فى الآخرة بتدسية النفس وتدنيها .

وهو سبحانه على سرعة عقابه وشديد عذابه للمشركين ، غفور للتوابين رحيم بالمؤمنين الحسنيين ، إذ سبقت رحمته غضبه ، ووسعت كل شىء ، ومن ثم جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها ، وقد يضاعفها بعد ذلك أضعافا كثيرة لمن يشاء ، كما جعل جزاء السيئة سيئة مثليا ، وقد يغفرها لمن تاب منها كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

نسأله تعالى أن يغفر لنا خطيئتنا ويستقرزلاتنا بكنهه وكرمه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة ما اشتملت عليه "سورة من العقائد والأحكام

(١) العقائد وأداتها بالأسلوب الجامع بين الإقناع والتأثير كبيان صفات الله بذكر أفعاله وسننه فى الخلق وآياته فى الأنفس والآفاق ، وتأثير العقائد فى الأعمال ، مع إيراد الحقائق بطريق المناظرة والجدل ، أو ورودها جوابا بعد سؤال ، وفى أثناء ذلك يرد شبهات المشركين ويهدم هياكل الشرك ويقوض أركانه .

(٢) الرسالة والوحى وتفنيد شبهات المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم وإلزامهم الحجة بآية الله الكبرى ، وهى القرآن المشتمل على الأدلة العقلية والبراهين.

العالمية ، وقد كان كثير من الكفار مشركين وغير مشركين يكفرون بالرسل ويستبعدون إنزال الوحي عليهم .

(٣) البعث والجزاء والوعيد بذكر ما يقع يوم القيامة من العذاب للمجرمين ، والبشارة للمتقين بالفوز والنعيم ، مع ذكر عالم الغيب من الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار ، وقد كانت العرب كغيرها من الأمم تؤمن بالملائكة وبوجود الجن ويعتقدون بأنهم يظهرون لهم أحيانا بصورة الغيلان ويسمعون أصواتهم وعزفهم ، وأنهم يلقون الشعر في هواجس الشعراء .

(٤) أصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب والنهي عن الرذائل ، وإذا نحن فصلنا القول فيها نرجعها إلى الأصول الآتية :

(١) إن دين الله واحد ، فتفريقه بالمذاهب والأهواء وجعل أهله فرقا وشيعا خروج عن هدى الرسول الذى جاء به وموجب لبراءته من فاعليه .

(ب) إن سعادة الناس وشقاوتهم منوطتان بأعمالهم النفسية والبدنية ، وأن الجزاء على الأعمال يكون على حسب تأثيرها في الأنفس ، وأن الجزاء على السيئة بمثلها ، وعلى الحسنة بعشر أمثالها فضلا من الله ونعمة ، وجزاء السيئات على الإنسان وحده ، وجزاء الحسنات له وحده ، فلا يحمل أحد وزر غيره .

(ح) إن الناس عاملون بالإرادة والاختيار ، ولكنهم خاضعون للسنن والأقدار ، فلا جبر ولا اضطرار ، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم ومشئته الخالق سبحانه ، إذ المراد من خلقه الأشياء بقدر وتقدير أنه تعالى خلقها على وجه جعل فيه المسببات على قدر الأسباب بناء على علم وحكمة ، فهو لم يخلق شيئا جزافا بغير تقدير ولا نظام يجرى عليه .

(د) إن لله سننا في حياة الأمم وموتها ، وسعادتها وشقاؤها ، وإهلاكها بمعاندة الرسل والظلم والفساد في الأرض ، وتربيتها بالنعم تارة والنقم أخرى .

- (هـ) إن التحيل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى ، فمن وضع حكماً لا يستند إلى شرع الله فقد افترى إثماً عظيماً .
- (و) الأمر بالسير في الأرض ، وقد تكرر ذلك في الكتاب الكريم للنظر في أحوال الأمم وعواقب الأقوام التي كذبت الرسل .
- (ز) الترغيب في معرفة ما في الكون والإرشاد إلى معرفة سنن الله فيه ، وآياته الكثيرة الدالة على علمه وقدرته .
- (ح) إن التوبة الصحيحة مع ما يلزمها من العمل الصالح موجبة لمغفرة الذنوب .
- (ط) ابتلاء الناس بعضهم ببعض ، ليتنافسوا في العلوم والأعمال النافعة ، وإعلاء كلمة الحق والدين ورفعة شأنه وإعزاز أهله .
-

سورة الأعراف

عدد آياتها خمس ومائتان ، وهى مكية ، وقد روى أنها نزلت قبل سورة الأنعام ،
وأنها نزلت مثلها دفعة واحدة ، لكن سورة الأنعام أجمع لما اشتركت فيه السورتان ،
وهو : أصول العقائد وكليات الدين التى قدمنا القول فيها ، وهى كالشرح والبيان
لما أوجز فى الأنعام ، ولا سيما عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وقصص الرسل قبله
وأحوال أقوامهم ، وقد اشتملت سورة الأنعام على بيان انخلق كما قال : « هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ » وبيان القرون كما قال : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ »
وعلى ذكر المرسلين وتعداد الكثير منهم ، وجاءت هذه مفصلة لذلك ، فبسّطت
فيها قصة آدم ، وفصلت قصص المرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ،
لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) .

شرح المفردات

(الْمَصَّ) هذه حروف تكتب بصورة كلمة من ذوات الأربعة الأحرف ،
لكننا نقروها بأسماء هذه الأحرف فنقول : ألف . لام . ميم . صاد .
وحكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء الحروف التى ليس لها معنى مفهوم
غير مسماها الذى تدل عليه — تنبيه السامع إلى ما سيليقي إليه بعد هذا الصوت من
الكلام حتى لا يفوته منه شيء . فكأنه أداة افتتاح بمنزلة ألا وها التنبيه .
(٧)

وبالاستقراء نرى أن السور التي بدئت بها وبذكر الكتاب ، هي التي نزلت بمكة لدعوة المشركين إلى الإسلام وإثبات النبوة والوحي ، وما نزل منها بالمدينة كالأزهر وأوين البقرة وآل عمران فالدعوة فيه موجهة إلى أهل الكتاب ، وهكذا الحال في السور: مريم والعنكبوت والروم وصّـون ، فإن ما فيها يتعلق بإثبات النبوة والكتاب كالفتنة في الدين بإيذاء الضعفاء لإرجاعهم عن دينهم بالقوة القاهرة ، والإنبياء بقصص فارس والروم ونصر الله للمؤمنين على المشركين ، وكان هذا من أظهر المعجزات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض العلماء أنها أسماء للسور ، والأسماء المرتجلة لا تغل ، كما يرى آخرون أن الحكمة في ذكرها بيان إعجاز القرآن بالإشارة إلى أنه مركب من هذه الأحرف المفردة التي يتألف منها الكلام العربي ومع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، ليؤديهم النظر إلى أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام خالق القوى والقدر ؛ والخرج : الضيق ، من عاقبة الخالفة ، والذكرى : التذكر النافع والموعظة المؤثرة ، وولاية الله لعباده : تولى أمورهم فيما لا يصل إليه كسبهم من هدايتهم ونصرهم على أعدائهم ، وشرعه لهم عبادته وبيان الحرام والحلال ، و (ما) في قوله قليلا ما - حرف يؤكد معنى القلة ، وتذكرون : أصله تتذكرون حذف منه إحدى التاءين .

الإيضاح

(كتاب أنزل إليك) أى هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك ، ووصفه بالإزال من عند الله - دال على عظيم قدره وقدر من أنزل إليه .
(فلا يكن في صدرك حرج منه) أى لا يضق صدرك من الإنذار به وإبلاغه من أمرت بإبلاغه إليهم ، واصبر لأمرى فيما حملتك من عبء النبوة كما صبر أولو العزم من الرسل فإن الله معك .

فقد كلف صلى الله عليه وسلم هداية الثقلين وكان من المتوقع أن يلقي أشد الإيذاء

والمقاومة والطعن والإعراض، وتلك أمور توجب ضيق الصدر كما قال في سورة الحجر: « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ » وقال في سورة النحل: « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقال في سورة هود: « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ويراد بالنهي عن مثل هذا الأمر الطبيعي — الاجتهاد في مقاومته والتسلي عنه بوعده الله ، والتأسي بمن سبقه من الرسل أولى العزم صلوات الله عليهم أجمعين .
(لتنذر به وذكرى للمؤمنين) والمراد بالمؤمنين هنا من كتب الله لهم الإيمان ، سواء أكانوا مؤمنين حين نزول هذه السورة أم لا .

والخلاصة — إنه أنزل إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان ذكرى نافعة مؤثرة .

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وخالفكم ومدبر أموركم ، فهو وحده الذى له الحق فى شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم ، وتحليل ما ينفعكم وتحريم ما يضركم ، إذ هو العليم بما فيه الفائدة أو الضرر لكم .

(ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى ولا تتخذوا من أنفسكم ولا من الشياطين الذين يوسوسون لكم — أولياء تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يرومون منكم من ضلال التقاليد والابتداع فى الدين ، فيضعوا لكم أحكام الحرام والحلال زاعمين أنهم أعلم منكم ، فيجب عليكم تقليدهم ، ولا أولياء ينجونكم من الجزاء على ذنوبكم وجلب النفع لكم أو رفع الضر عنكم ، زاعمين أنهم يقربونكم إلى الله زلنى ، أو يشفعون لكم عنده فى الآخرة .

والخلاصة — إن الله وحده هو الذى يتولى أمر العباد بالتدبير والخلق والتشريع ، وله وحده الخلق والأمر وبيده النفع والضرر .

(قليلا ما تذكرون) أى إنكم تتذكرون قليلا لا كثيرا ما يجب أن يعلم الرب سبحانه ، وما يحظر أن يشرك معه فيه غيره ، وقد يكون المراد — قليلا ما تتعظون بما توعظون به ، فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم إلى ما أنزل إليكم من ربكم .

وفى هذا إيماء إلى النهى عن طاعة الخلق فى أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه كما فعل أهل الكتاب فى طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات ، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء فى قوله : « اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » فكل من أطاع أحدا فى حكم شرعى لم ينزله الله فقد اتخذه ربا .

واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من بيان الدين — داخل فى عموم ما أنزل إلينا على رسوله ، لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه كما قال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . وقد صح فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء ممن دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيي فإنما أنا بشر » رواه مسلم عن رافع بن خديج فى مسألة تأييد النخل (تلقيح النخلة بطلع الذكر) .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)
فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) .

شرح المفردات

(كم) اسم يفيد التكثير ، والقريّة : تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس وعلى الناس معا ، وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » أى

أهل القرية ، والقرية هنا تصلح لأن يراد بها القوم أنفسهم ، وأن يراد بها المكان ، لأنه يهلك كما يهلك أهله ، والبيات : الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة ، والبأس : العذاب ، والقائلون : هم الذين ينامون استراحة وسط النهار أى حين القائلة يقال : قال يقيل قيلا وقيلولة ، والدعوى ما يدعيه الإنسان ، وتطلق على القول أيضا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه في سلف أنه أنزل الكتاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويكون موعظة وذكرى لأهل الإيمان ، وأنه طلب إليه أن يأمر الناس باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وألا يتبعوا من دونه أحدا يتولونه في أمر التشريع أردف هذا بالتخويف من عاقبة المخالفة لذلك ولما يتبعه من أصول الدين وفروعه ، والتذكير بما حل بالأمة قبلهم بسبب إعراضهم عن الدين وإصرارهم على أباطيل أوليائهم .

الإيضاح

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون) أى وكثير من القرى أهلكناها لعصيانها رسلها فيما جاءوها به من عند ربها ، وكان هلاكها إما حين البيات ليلا كقوم لوط . وإما حين القائلة وهم آمنون نهارا كقوم شعيب ، وكلا الوقتين وقت دعة واستراحة لم تكن تنتظر فيه كل منهما هلاكا ولا عذابا ، فلا يحمل بالمائل أن يأمن غدر الليالى ولا خدع الأيام ولا يفتر بالرخاء فيعده علامة على أنه مستحق له فيوم مظنة الدوام .

وفى ذلك نعيض بغيرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزهم وعصبيتهم ، وأن ذلك من دلائل رضا الله عنهم كما قال تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » .

(فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان دعائهم واستغاثتهم حين جاءهم العذاب إلا أن اعترفوا بظلمهم فيما كانوا عليه ، وشهدوا ببطلانه ، تحسرا وندامة وطمعا فى الخلاص ، ولكن أنى ينفع الندم ، وقد أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .

وفى الآية من العبرة — أن كل مذنّب يقع عليه عقاب ذنب فعله فى الدنيا ، يعترف بجرمه ويندم على ما فرط منه إذا هو علم أنه سبب العقاب ، وقلما يشعر المرء بعقاب فى الدنيا على الذنوب ، لأنه يأتى على التراخى غالبا فالأمراض التى تتولد من شرب الخمر كأمراض القلب والكبد والجهاز التناسلى وضعف النسل واستعداده للأمراض إلى نحو ذلك من الأمراض الجسدية والعقلية تحصل ببطء ، وقلما يعرفها غير الأطباء ؛ ومن ثم لا يشعر بها السكارى وإنما يشعرون بما يعقب الشرب من صداع وغثيان يسهل عليهم احتماله وترجيح لذة النشوة عليه .

إلى أنه لو علمها بعدُ فقلما يفيد علمه بها شيئا بعد بلوغ تأثيرها هذه الدرجة فى السكور حتى تحمله على التوبة ، إذ داء الخمار يزمن ، وحب السكر يضعف الإرادة . وعقاب الأفراد على الذنوب فى الدنيا لا يطرده ، كما يطرده فى الأمم ، فقابها فى الدنيا على ما تجترح — حتم لاشبهة فيه ، ولكن له آجال ومواقيت أطول مما يكون فى الأفراد ، ويختلف باختلاف أحوال الأمة فى القوة والضعف ، فامة نشأ فيها النظم والطغيان وعدمت الثقة بين أفرادها واختل نظام الأمن فيها وكثر فيها الفسق والفجور — تسوء حالها ونحل قواها وتتفكك روابط الألفة والمودة بين أفرادها وتضعف منعتها ، فتحسب أهلها جميعا وقلوبهم شتى ، ولا يزال أمرها يأخذ فى التدهور والفساد حتى يستولى عليها العدو القاهر ويمتص ثروتها ويجعل أهلها أذلة مستضعفين ، وقلما تشعر أمة بعاقبة ذنوبها قبل وقوع العقوبة ، كما لا يجديها نفعا أن يقول حكماؤها : يا ويدينا إنا كنا ظالمين . وربما عمها الجهل ، وران على قلوبها الفساد فلا تشعر بأن ما حل بها إنما كان جزاء وفاقا ، ونكالا من الله على ما قدمت

من عمل ، واقترفت من إثم ، فترضى باستذلال الغاصب كما رضيت من قبل بما اجترحت من الآثام والذنوب ، وقد يكون ذلك سبيلا لا تقراضها بما يعقبه الفسق والفجور من قلة النسل ، ولا سيما إذا فشا الزنا والسكر ، أو تبقى فيها بقية تدغم فى الكثرة الغالبة ، فلا تعد أمة على سبيل الاستقلال ، وربما نالت عليها المصائب والآثام حتى تضيق بها ذرعا فتطلب لها مخرجا وترجع إلى الوراء لتبحث عن أسبابها فلا تجدها إلا فى أنفسها كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » .

وإذا أرادت لها علجا وتمنت لها دواء من دائها الدوى وتلفتت يئنة ويسرة سرا وعلانية لم تجده إلا ما وصفه الكتاب الكريم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » وإن يكون ذلك إلا بالإقلاع عما ترتكب من الجرائم والتوبة الصادقة والعمل الطيب الذى به تصلح القلوب وتستقيم الأمور ، وهما كم ما قاله العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم حين توسل به عمر والصحابه بتقديمه لصلاة الاستسقاء لما انقطع الغيث وعم الجذب : اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة .

وفى هذا عبرة أيما عبرة للشعوب الإسلامية التى ثلث عروشها ، وخوت صروح عظمتها ، وقد كانت أجدر بهدى القرآن ، ولكن أنى لها بذلك ، وقد هجره الخاصة وتبعهم العامة ، إذ جهلوا أحكامه وحكمه ، حتى لقد بلغ الأمر بنا بئتها ، ألا ترى سببا ركود ريجها إلا اتباع القرآن والعمل بهذا الدين : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

فَلَمَنْسَأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَمَقُصَّنْ عَلَيْهِمْ
يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظَاهِمُونَ (٩).

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه الرسل فى الآية السالفة بالتبليغ وأمر الأمم بالقبول والمتابعة،
وذكرهم بعذاب الأمم التى عاندت الرسل فى الدنيا — قفى على ذلك بذكر العذاب
الآجل يوم القيامة ، وأنه فى ذلك اليوم يسأل كل إنسان عن عمله .

الإيضاح

(فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) الذين أرسل إليهم : هم جميع
الأمم الذين بلغتهم دعوة الرسل ، فيسأل تعالى كل فرد منهم فى الآخرة عن رسوله
إليه وعن تبليغه لآياته ، ويسأل المرسلين عن تبليغهم وإجابة أقوامهم لهم وعما عملوا
من إيمان وكفر ، وقد فصل هذا الإجمال فى آيات أخرى كقوله : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ » وقوله : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ » وقوله
فى سورة الحجر : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قال ابن عباس : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ، ونسأل المرسلين عما بلغوه ،
والمراد بالسؤال حينئذ تجميع الكفار وتوبيخهم .

ولا مخالفة بين هذه الآية التى تثبت السؤال العام وبين قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ
لَّا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »
لأن ليوم القيامة مواقف متعددة ، والسؤال والجواب والاعتذار يكون فى بعضها
دون بعض .

وقال الرازى : إنهم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب قد أحصتها ، لكنهم يسألون عن اندواعى التى دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التى صرفتهم عنها . يريد أنهم يسألون عن الموانع التى حالت بينهم وبين عمل ما طلب منهم عمله ، أو فعل ما طلب إليهم تركه .

(قلنقصن عليهم بعلم) القص تتبع الأثر إما بالعمل كما فى قوله حكاية عن أم موسى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » وإما بالقول كما فى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » .

أى فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصا بعلم منا محيط بكل ما كان منهم ، فلا يعزب عنا مثقال ذرة ، وقد روى عن ابن عباس أنه يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

(وما كنا غائبين) عنهم فى وقت من الأوقات ولا حل من الأحوال ، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ونبصر ما يعملون ، ونحيط علما بما يسرون وما يعلنون ، كما قال تعالى : « وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ . وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا » .

وفى هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشيء مجهول عنه تعالى ، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخا لهم وتأنيبا على إهمالهم .

وهذا القصص هو الذى يكون به الحساب ويتلوه الجزاء ، وقد دل عليه الكتاب الكريم فى مواضع عدة ، ودلت عليه السنة ؛ فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلّم راع وكلّم مسؤل عن رعيته ، فالإمام راع يسأل عن الناس ، والرجل راع يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » وما رواه المقدم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة ، بين يديه راية

يحملها وهم يتبعونه ، فيسأل عنهم ويسألون عنه » وما رواه الترمذى عن أبى بَرَزَةَ
الأسلمى مرفوعاً : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم
عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » وروى
الحاكم وابن ماجه حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ مرفوعاً : « الكَيْسُ من دان - حاسب -
نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

(والوزن يومئذ الحق) الوزن عمل يراد به تعرّف مقدار الشيء بالميزان
والقسطاس ، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله : « هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَلِالْمِيزَانِ » وقوله فى الرسل : « وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

أى والوزن فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والأمم ، ويقص عليهم كل
ما كان منهم - هو الحق أى الذى نعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من
نواب وعقاب .

(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موازين أعماله
بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب ، والحائزون للنعيم
فى دار الثواب .

(ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) أى
ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات ، فأولئك الذين
خسروا أنفسهم ، إذ حرموها السعادة التى كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها
بالكفر والمعاصى وإصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم .

والخلاصة - إن المؤمنين على تفاوت درجاتهم فى الأعمال هم المفلحون ، فمن
مات مؤمناً فهو مفلح وإن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها ، وإن الكافرين على
تفاوت درجاتهم هم فى خسران عظيم .

وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أصحاب الأعراف وسيئاتي
ذكرهم بعد .

وقد اختلف العلماء فى الوزن والموازن ، هل المراد بها ظهور العدل التام فى تقدير الجزاء على الأعمال التى تصالح الأنفس وتركها أو تفسدها وتدسيها ؛ بذلك قال مجاهد والضحاك والأعمش ، أو أن هناك وزنا حقيقيا حكمته إظهار علم الله تعالى بأعمال عباده وعدله فى جزائهم عليها ، وبهذا قال الجمهور ، قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال .

وفال القرطبي : التى توزن هى الصفات التى تكتب فيها الأعمال .
والحق أن التى توزن هى الأعمال ، فقد أخرج أبو داود والترمذى عن جابر مرفوعا : « توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال حبة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار ، قيل ومن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف » .
والذى عليه المعول فى الإيمان بعالم الغيب : أن كل ما ثبت من أخباره فى الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه ، فنؤمن به ولا نحكم رأينا فى كلفيته ، فنؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال يميزان يلقى بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق ، ولا نبحت عن صورته وكلفيته .

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شئ عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التى سماها الدين الحسنات والسيئات ، بما تحدثه فى الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها ؟

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا
مَا تَشْكُرُونَ (١٠) .

شرح المفردات

مكنناكم في الأرض، أى جعلنا لكم فيها أمكنة تدبونها وتمكنون من الإقامة فيها، والمعاش واحدھا معيشة: وهى ما تكون به العيشة والحياة الجسدية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها، وهى ضربان :

(١) ما يحصل بخلق الله ابتداء كالثمار وغيرها .

(٢) ما يحدث بالاكنتساب .

وكلاهما إنما يحصل بفضل الله وإقداره وتمكينه ، فيكون السكل إنعاما من الله ، وذلك مما يوجب طاعته .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن واضع الدين هو الله فيجب اتباعه دون ما يأمر به غيره من الأولياء والشفعاء ، وقفى على ذلك بذكر عذاب الدنيا بقوله : وكم من قرية أهلكناها ، وذكر عذاب الآخرة بقوله : فلنسالن الذين أرسل إليهم ، وبقوله : والوزن يومئذ الحق .

أردف ذلك بذكر نعمه على عباده بتمكينهم فى الأرض وخلق أنواع المعاش فيها ، مع بيان أن كثرة النعم توجب عليهم الطاعة .

الإيضاح

(ولقد مكنناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش) أى ولقد جعلنا لكم فيها أوطانا تدبونها وتستقرون فيها ، وجعلنا لكم فيها معاش تعيشون بها أيام حياتكم من مطاعم ومشارب ، نعمة منى عليكم ، وإحسانا منى إليكم ، وأنشأنا لكم فيها ضروبا شتى من المنافع التى تعيشون بها عيشة راضية : من نبات وأنعام وطير وسمك ومياه عذبة وأشربة مختلفة الطعوم والروائح ، ووسائل مختلفة للتنقل والارتحال من

جهة إلى أخرى تتقدم بتقدم العلم والاختراع من طائرات وسيارات وقطر برية وسفن بحرية ، وسبل متعددة لمداداة المرضى بالمعاقير المختلفة على يد نطس الأطباء إلى نحو ذلك .

وكل ذلك يقتضى منكم الشكر الكثير ، ولكن الشكر من العباد قليل كما قال :
« وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ » ومن ثم عقب هذا بقوله :

(قليلا ما تشكرون) أى وأتم قليلاو الشكر على هذه النعم التى أنعمت بها عليكم ، لا كثيره كثرة تناسب كثرة الانتفاع بها ، فقد عبدتم سوى واتخذتم الأولياء والشفعاء من دونى .

وشكر النعمة يكون بمعرفة النعم بها ثم حمده والثناء عليه بما هو له أهل ، ثم التصرف فيها بما يحبه ويرضاه ، وتحقيق الأغراض التى أسداها لأجلها .
فهذه النعم المعيشية ما خلقت إلا لحفظ الحياة الجسمانية للأفراد والجماعات ، والاستعانة بذلك على حفظ الحياة الروحية التى بها تزكو الأنفس ، وتستعد للحياة الأخرى الأبدية التى فيها النعيم المقيم والسعادة المستقرة إلى غير نهاية .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
أَبْدِيَهُمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) .

شرح المفردات

الخلق: التقدير، يقال خلق الخياط الثوب: أى قدره قبل قطعه ، وخلق الله الخلق:
أوجدهم على تقدير أوجبه الحكمة ، والمهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه
أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إما حسى وإما معنوى، والتكبر: جعل الإنسان نفسه
أكبر مما هى عليه ، والصغار الذلة والمهوان ، وأنظره: أخره ، والإغواء الإيقاع فى الغواية:
وهى ضد الرشاد ، وذأم الشيء : عابه ، ودحر الجند العدو ، طرده وأبعده .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عبادته فى الآية السابقة بنعمه عليهم بالتمكين فى الأرض
وخلق أنواع المعاش فيها — قفى على ذلك ببيان خلق النوع الإنسانى مستعدا للكمال
وأنه قد تعرض له وسوسة من الشيطان تحول بينه وبين هذا الكمال الذى يبتغيه .

الإيضاح

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) الخطاب لبني آدم أى ولقد خلقنا مادة هذا
النوع من الصلصال والحما المسنون أى من الماء والطين اللازب ، فنه خلق الإنسان
الأول ، ثم جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوى قابل للحياة .
وقد يكون المعنى — إنا قدرنا إيجادكم تقديرا ثم صورنا مادتك تصويرا ، وذلك
شامل لخلق آدم وخلق مجموع الناس ، إذ أن كل فرد يقدر الله خلقه ثم يصور المادة
التي يخلقها منها فى بطن أمه .

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى وبعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا

وصار مستعدا لأن يكون خليفة في الأرض ، وعلمناه الأسماء كلها ، قلنا لجماعة الملائكة اسجدوا لآدم .

(فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) أى فسجد الملائكة جميعا إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ، وهو من الجن لا منهم .

وهذا السجود سجود تكريم وتعظيم من الله لآدم لا سجود عبادة ، فقد قامت الدلائل القاطعة على أنه لا معبود إلا الله وحده .

(قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) لا هنا مزيدة للتأكيد بدليل قوله في آية أخرى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ » أى قال له تعالى : ما منعك من امتثال أمرى ، فرفضت أن تسجد لآدم مع الساجدين .

وقد تكون (لا) غير زائدة والمنع بمعنى الحمل والاضطرار ، وعليه فالمعنى - ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد .

وخلاصة ذلك - أى شيء عرض لك فحملك على ألا تكون مع الملائكة في امتثال أمرى بالسجود ؟ .

ثم ذكر سببا يبرر به امتناعه عن السجود .

(قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) أى إن الذى حملنى على ذلك أنى خير منه ؛ إذ أنك خلقتنى من النار وخلقته من الطين ، والنار خير من الطين وأشرف ، والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره بذلك ربه .

ولاشك أن فى هذا ضروبا من الجهالة وأنواعا من الفسوق والعصيان تتجلى لك

فيا بلى :

(١) اعتراضه على مولاه وخالقه بما تضمنه جوابه .

(ب) احتجاجه عليه بما يؤيد به اعتراضه ، والمؤمن المذعن لأمر ربه يعلم أن لله الحجة البالغة والحكمة السكاملة فيما يفعل ويأمر وينهى .

(ح) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسنانه له وموافقته لهواه ، وهذا

ورفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية ، والمردوس في الدنيا إذا لم يطع أمر الرئيس إلا فيما يوافق هواه ، صار الأمر فوضى والعاقبة وخيمة فلا يصلح عمل ولا يتم الفوز والنجاح .

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن جعفر الصادق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال الله تعالى له اسجد لآدم قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » قال جعفر : فن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس .

(د) استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمور اعتبارية تختلف فيها الآراء ولا تثبت بالبرهان ، إلى أن كثيرا من المواد النفسية خسيصة الأصل ، ألا ترى أن أصل المسك الدم ، والماس من (الكربون) الذي هو أصل الفحم ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(هـ) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية التي في هذه الأرض إيمان من الطين مباشرة أو بالواسطة وهي خير ما فيها ، وليس للنار شيء من هذه المزايا ولا ما يقرب منها . (ز) إنه قد جهل ما خص به آدم من استمداده العلمي والعملی أكثر من سواء ، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، فكان بذلك أفضل منهم ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة لربهم .

وكل ما قدمنا مبنى على أن الأمر بالسجود أمر تكليف ، وأنه قد وقع حوار بين الله وإبليس .

ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأموال الأرض بإذن ربهم — مسخرين لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها بعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فلا تنتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ،

وبذلك ظهرت حكمة الله تعالى وآياته فيها ، كما اصطفى بعض أفراده وخصمهم بوحية ورسالته وجعلهم مبشرين بدينه وهديه ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله تعالى وإقامة سننه في صلاح الخلق ، وبين روح الجن الذين يغلب على شرارهم (وهم الشياطين) التمرد والعصيان .

كما أنه تعالى آتى الإنسان إرادة واختيارا إن شاء صعد إلى أفق الملائكة ، وإن أراد هبط إلى أفق الشياطين .

(قال فاهبط منها) أى اهبط من الجنة التى خلقك الله فيها وكانت على مرتفع من الأرض حين كانت قريبة العهد بالظهور فى وسط الماء ، فغير ما يصلح منها لسكنى الإنسان مرتفعاتها .

وقيل هى جنة الجزاء التى أسكنه الله فيها بعد خلقه فى الأرض ، ويرشد إلى هذا ما جاء فى سورتي البقرة وطه من أمره بالهبوط وأمر آدم وزوجه بذلك بعد قوله : « أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » .

(فما يكون لك أن تتكبر فيها) أى فما ينبغى لك أن تتكبر فى هذا المكان المعد للكرامة والتعظيم .

(فاخرج إناك من الصاغرين) أى فاخرج من هذا المكان ، فإنك من ذوى الذلة والهوان ، وقد أظهر حقيقتك الامتحان ، ودل على أنك من الأشرار لا الأخيار . وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى جازاه بضد ما أراد ، فقد أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها فجوزى بالهبوط منها إلى ما دونها ، وجاء فى بعض الآثار : « إن الله تعالى يحشر المتكبرين يوم القيامة فى أحقر الصور ، إذ يطوهم الناس بأرجلهم ، كما أنه يبعثهم إلى الناس فى الدنيا ، فيحتقرونهم ولو فى أنفسهم » .

(قال أنظرني إلى يوم يبعثون) أى قال رب أمهاني إلى يوم يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتي أحياء ما داموا أحياء ، وأشهد انقراضهم وبعثهم .

وقد أراد بذلك أن يمجّد فسحة في الإغواء فيأخذ بالثأر، ثم هو مع ذلك ينجو من الموت إذ لاموت بعد البعث .

(قال إنك من المنظرين) أى قال سبحانه : إني أجبتك إلى ما طلبت ، بما في ذلك من الحكمة التي أنا بها عليم .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى جعله من المنظرين إلى يوم يبعثون ، لكن جاء في سورة الحجر : « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْنُومِ » فهذا يدل على أن النظرة إلى وقت النفخة الأولى بالصور ، وهي النفخة التي يموت فيها أهل الأرض جميعا دفعة واحدة ، لا إلى وقت النفخة الثانية وهي التي بها يبعثون ، وورد أن بينهما أربعين سنة .

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى في سورة النمل : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » ونفخة الصعق لقوله في سورة الزمر : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عن هذه الآية : من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا ؟ قال : هم شهداء الله عز وجل ، أى هم حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم في الدنيا وهم يشهدون في الآخرة بضلال كل من خالف هديهم وسنتهم ، ويدخل في هؤلاء النبيون والصديقون ، فكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » وكذلك كل صديق شهيد .

والخلاصة — إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التي يتلوها خراب هذه الأرض كما قال في سورة الحاقة : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَصُمَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » .

ولا يبقى إلى يوم البعث ، إلا إذا قلنا إن يوم البعث ويوم القيامة يطلقان تارة على ما يشمل زمن مقدمتهما ، وتارة أخرى على زمن الغاية وحدها .

(قال فما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) صراط الله المستقيم : هو الطريق الذى يصل سالكه إلى السعادة التى أعدها سبحانه لمن زكى نفسه بهدى الدين الحق الذى يكمل الفطرة كما جاء فى الخبر : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

أى قال إبليس : فباغوائك إياى من أجل آدم وذريته ، أقسم لأقعدنّ لهم على صراطك المستقيم ، فأصدهم عنه وأقطعنه عليهم بأن أزين لهم طرقاً أخرى أشرعها لهم من جوانب هذا الطريق حتى يضلوا عنه ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع إلا هاجتهم منها مترصداً لهم كما يقعد قطاع الطريق للسابلة .

وخلاصة ذلك — لأسولنّ لهم ولأضلنهم قدر المستطاع ، وقد ضرب لذلك المثل بحال العدو يأتى عدوه من أى جهة أمكنته ويفترص الفرصة إذا سنحت له .

(ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى ولا تجد أكثرهم مطيعين لك وشاكرين لنعمك عليهم فى عقولهم ومشاعرهم ومعايشهم وفى كل ما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم ، بل الأقلون منهم هم الذين يتبعون ذلك ، وقد قال إبليس ذلك عن ظن فأصاب لقوله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وروى عن ابن عباس فى تفسير الجهات الأربع : من بين أيديهم أى أشككهم فى آخرتهم ، ومن خلفهم أى أرغبهم فى دنياهم ، وعن أيمانهم أى أشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم أى أستنّ لهم المعاصى ، ولا تجد أكثرهم شاكرين أى موحدين ؛

وفي رواية أخرى عنه - من بين أيديهم أى من قبل الدنيا ، ومن خلفهم أى من قبل الآخرة ، وعن أيمانهم أى من قبل حسناتهم ، وعن شمائلهم أى من قبل سيئاتهم .

والرواية الثانية تخالف الأولى في تفسير ما بين الأيدى : هل المراد منه ما هو حاضر أو ما هو مستقبل ، وفي تفسير الخلف : هل المراد منه ما يتركه المرء ويتخلف عنه وهو الدنيا ، أو هو ما وراء حياته الحاضرة وهو الآخرة ، واللفظ محتمل لكلا التاويلين .

روى أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات : « اللهم احفظنى من بين يديّ ومن خلفى وعن يمينى وعن شاملى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى » .
(قال اخرج منها مذهبنا مدحورا) أى قال اخرج من الجنة وأنت مذموم مهان من الله وملائكته ومطروود من جنته .

(لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) أى أقسم إن من يتبعك من بنى آدم فيما ترينه له من الشرك والفجور ، ويصدق ظنك عليه -- ليكون معك فى جهنم دار العذاب ، ولأملأنها منك ومن تبعك منهم أجمعين .

وفي قوله منهم إشارة إلى أن الملء يكون من بعضهم ، فإن بعض من يتبعه فى بعض المعاصى من المؤمنين الموحدين يغفر الله لهم ويعفو عنهم .

ونحو الآية قوله فى سورة ص : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وقد استثنى فى سورتي الحجر وص من إغوائه عباده الخالصين ، فقال فى الأولى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » وقال فى الثانية : « قَالَ فَبِمَا تَزِدُّنَا لَأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » .

وقد علمت أن المراد من هذا بيان طبيعة البشر وطبيعة الشيطان واستعدادها واختيارها في أعمالها كما هو رأى بعض العلماء ، وأيد ذلك الحافظ ابن كثير .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوسَّوسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاَسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) .

شرح المفردات

أصل الوسوسة : الصوت الخفى المكرر، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة، ووسوسة الشيطان للبشر : ما يحدونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم ، ووورى الشيء : غطى وستر ، والسوءة : ما يسوء الإنسان أن يراه غيره من أمر شائن وعمل قبيح ، وإذا أضيفت إلى الإنسان أريد بها عورته

الفاحشة ، لأنه يسوءه ظهورها بمقتضى الحياء الفطرى ، من الخالدين أى الذين لا يموتون أبدا ، وقاسمهما أى أقسم وحلف لهما ، ودلى الشيء تدلية : أرسله إلى أسفل رويدا رويدا ، والغرور : الخداع بالباطل ، طفقا أى أخذا وشرعا ، يخصفان أى يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قوهم : خصف الإسكافى النعل : إذا وضع عليها مثلها .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث متصلا فى الكلام فى النشأة الأولى للبشر وفى شياطين الجن ، وقد ذكرت تمهيدا لهداية الناس بما يتلوها من الآيات فى وعظ بنى آدم وإرشادهم إلى مابه تكمّل فطرتهم ، وفى ذلك امتنان عليهم وذكر لكرامة أبيهم .

الإيضاح

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنة : هى التى خلق فيها آدم ، فأدم خلق من الأرض فى الأرض .

وقد تكررت هذه القصة فى سبعة مواضع من الكتاب العزيز ، ولم يرد فى موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التى هى دار الجزاء ، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال . ويرده أنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولا تكليف فى دار الجزاء ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، ودخل عليه إبليس ، ولا نوم فى الجنة ، ولا خروج بعد الدخول ، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج .

والآية تدل على أن آدم كان له زوج فى الجنة ، وفى التوراة (إن الله ألقى على آدم سباتا انتزع فى أثناءه ضلعا من أضلاعه ، فخلق منه حواء امرأته ، وأنها سميت امرأة لأنها من امرئ أخذت) وليس فى القرآن ما يدل على هذا ، وما روى من ذلك مأخوذ من الإسرائيليات ، وما روى فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم

« فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو من باب التمثيل على حد قوله : « خُلِقَ
الإنسان من عَجَلٍ » والدليل على ذلك قوله بعد : « فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن
تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فإنه لا شك أن المراد منه - لا تحاولوا
تقويم النساء بالشدة والغلظة في المعاملة .

(فكللا من حيث شئنا) أى فكللا من ثمارها من أى مكان أردتما .

(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) النهى عن قرب الشيء أبلغ
أثرا من النهى عن الشيء نفسه ، إذ أنه يقتضى البعد عن موارد الشبهات التى تغرى
به كما جاء فى الحديث : « ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول
الحملى يوشك أن يقع فيه » .

وقد أبهم سبحانه هذه الشجرة ، ولو كان فى تعيينها خير لنا لعينها ، وقد علل
القرآن النهى عنها ، بأنهما إذا اقتربا منها كانا من الظالمين لأنفسهما بفعلهما ما يعاقبان
عليه ولو بالحرم من رغد العيش وما يعقبه من التعب والمشقة .

(فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنهما من سوءاتهما) أى زين لها
ما يضرهما ويسوءهما إذا هما رأيا ما يؤثران ستره وألا يرى مكشوفاً ، والأرجح أن هذه
الوسوسة كانت بأن تمثل الشيطان لآدم وزوجه وكلهما .

(وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من
الخالدين) أى وقال لها فيما وسوس به : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة
إلا لأحد أمرين : كراهة أن تكونا بالأكل منها كالملكين فيما أوقى الملائكة من
الخصائص والزايا : كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بتأثيرات الكون المؤلمة المتعبة ،
أو كراهة أن تكونا من الخالدين فى الجنة ، أى الذين لا يموتون البتة .

وإخلاصة — إنه أوههما أن الأكل من هذه الشجرة إما أن يعطى الآكل
صفات الملائكة وغرائزهم ، أو يقتضى الخلود فى الحياة .

وفى الآية إيماء إلى تفصيل الملائكة على آدم ، وخصه بعضهم بملائكة

السماء والعرش والكرسى من العالين والمقربين ، دون ملائكة الأرض المسخرين .
لتدبير أمورهما وإحكام نظامها .

(وقاسمهما إني لسكّان الناصحين) أى وأقسم إنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من الشجرة ، وأكد ذلك بأشد المؤكّدات وأعلظها ، إذ كان عندهما محل الظنّة فى نصحه ، لأن الله أخبرهما أنه عدو لهما .

(فدلّاهما بغرور) أى فما زال يخدعهما بالترغيب فى الأكل من هذه الشجرة .
والقسم على أنه ناصح لهما حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة .
وطاعة البارئ لهما بما غرهما به وزين لهما ، وقد اغترا به واتخذاه بقسمه وصدقا قوله اعتقادا منهما أن أحدا لا يخلف بالله كاذبا .

ويرى بعض العلماء أن الغرور كان بتزيين الشهوة ، فإن من غرائز البشر وطبائعهم كشف الجهول والرغبة فى الممنوع ، فقد نفخ الشيطان فى نار هذه الشهوات الغريزية وأثار النفس إلى مخالفة النهى حتى نسى آدم عهد ربه ، ولم يكن له من قوة العزم ما يكفه عن متابعة امرأته ، ويعتصم به من تأثير شيطانه كما قال فى سورة طه : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى الْوَعْدَ لَهُ عَزَمًا » وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة : « ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » أى لأنها هى التى زينت له الأكل من الشجرة ، وقد فطرت المرأة على تزيين ما تشتهييه للرجل ولو بالخيانة له .
(فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)

أى فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوءته وسوء صاحبه وكانت مستورة عنهما ، فذبت فيها شهوة التناسل بتأثير الأكل من الشجرة ، فنبهتهما إلى ما كان خفيا عنهما من أمرها ، فحجلا من ظهورها وشعرا بالحاجة إلى سترها ، وشرعا يلزقان ويربطان على أبدانها من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها .

وهذه المواراة معنوية كما هو الظاهر ، وقد تكون حسية ويكون الساتر هذا الشعر الملقى وإن كانت قد تظهر الشهوة ما يخفيه .

والخلاصة — إن الشيطان لما وسوس لها بقوله : مانها كما ربكما الخ ولم يقبل منه ما قال — لجأ إلى اليمين كما دل على ذلك قوله : وقاسمهما ، فلم يصدقها أيضا ، فعدل بعد ذلك إلى الخداع كما أشار إلى ذلك بقوله : فدلاهما بغرور أى إنه شغلها بتحصيل اللذات فجعلها نصب أعينهما ونسيا النهى كما يدل على ذلك قوله : « فَذَسَّىٰ وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

وقد عاتبه الله على تركه التحفظ والحيلة والتدبر في عواقب الأمور فقال :
(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) أى وناداهما ربهما معاتباهما وموبخاهما وقال : ألم أنهكما عن أن تقربا هذه الشجرة وأقل لكما إن الشيطان ظاهر العداوة لكما ، فإن أطعماه أخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء في العيش والتعب والنصب في الحياة .
ونحو الآية قوله في سورة طه : « فَقُنَّا يَا دُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » .

(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أى قالا ربنا إنما ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان ومعصيتنا لأمرك وقد أذرتنا ، وإن لم تغفر لنا ما ظلمنا به أنفسنا وترحمنا بالرضا عنا وتوفيقنا إلى الهداية وترك الظلم ، وبقبول توبتنا إذا نحن أنبنا إليك ، وإعطائنا من فضلك فوق ما نستحق — لنكونن من الخاسرين لأنفسنا والفوز والفلاح بتزكيتها .

والخلاصة — إن الظفر بالمقصود والفوز بالسعادة لا ينالها بمغفرتك ورحمتك إلا من ينيب إليك ويتبع سبيلك ، ولا ينالها من يصصر على ذنبه ويحتج على ربه كما فعل الذى أبى واستكبر فكان من الخاسرين .

ونحو الآية قوله في سورة البقرة : « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

(قال اهبطوا بعضهم لبعض عدو) يرى كثير من سلف الأمة أن هذا الخطاب لأدم وحواء ، وإبليس عليه اللعنة ، أى اهبطوا من هذه الجنة بعضهم عدو لبعض أى إن الشيطان عدو للإنسان ، فعلى الإنسان ألا يغفل عن عداوته ولا يأمن وسوسته وإغواءه كما جاء فى قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وهذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التى بها ظلموا أنفسهم ، وقد قضت به سنة الله فى الخلق ، إذ جعله أثرا طبيعيا للعمل السيئ مترتبا عليه ، أما العقاب الأخرى على عصيان الرب فقد غفره الله له بالتوبة التى أذهبت أثره من النفس وجعلتها محلا لاصطفائه كما قال فى سورة طه : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

(ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أى ولكم فى الأرض استقرار وبقاء إلى زمن مقدر فى علم الله وهو الأجل الذى به تنتهى فيه أعماركم وتقوم فيه القيامة ، كما أن لكم فيها متاعا تنفعون به فى معيشتكم .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » .
ثم فصل هذا القول المجمل :

(قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) أى فى هذه الأرض التى خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدر لكل منكم وللنوع بأسره ، وفيها تموتون حين انتهائه ، ومنها تخرجون بعد موتكم كلكم ، وحين ما يريد المولى أن يبعثكم من مرقدكم للنشأة الآخرة .

ونحو الآية قوله تعالى فى سورة طه : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

مغزى هذا القصص

قص الله سبحانه علينا خبر النشأة الأولى ليرشدنا إلى ما فطرنا عليه ، وإلى ما يجب علينا من شكره وطاعته ، ويبين لنا أنه خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض ، وجعله مستعداً لعلم كل شئ فيها وتسخير ما فيها من القوى لمنافعه وليهدينا إلى أنه كان في نشأته الأولى في جنة النعيم وراحة البال ، وقد جعله مستعداً للتأثر بالأرواح الملسكية التى تجذبه إلى الحق والخير والأرواح الشيطانية التى تجذبه إلى الباطل والشر ، وعاقبة التأثر الأول سعادة الدارين ، ونتيجة الثانى الشقاء فيهما ، وهو أيضاً محتاج إلى الوحي لإرشاده وهدايته .

فعلينا أن نعرف غرائزنا ونربى أنفسنا على أن نتذكر عهد الله إلينا بأن نعبده وحده ولا نعبد معه أحداً سواه ، ولا ننسأه فننسى أنفسنا ونغفل عن تركيتها ونتركها كالريشة فى مهابأ أهواء الشهوات ووساوس شياطين الضلالات .

وعلينا أن نعرف أن آدم لم يكن نبياً ورسولاً عند بدء خلقه ولا موضعاً للرسالة فى ذلك الحين ، بل أنكر بعضهم أن يكون رسولاً مطلقاً ، وقال إن أول الرسل نوح عليه السلام كما تدل على ذلك الآيات الواردة فى الرسل والأحاديث الصحيحة ، وما ورد فى هذه القصة من التفسير بالمأثور فأكثره مدخول مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا فى الإسلام للكيد له وكان الرواة ينقلون عن الصحابى أو التابعى ما مصدره من الإسرائيليات فيفتربه بعض الناس فيظنون أنه لا بد له من أصل مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لا يعرف بالرأى .

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ،
وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

الريش: لباس الحاجة والزينة ، ولباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يتقى به في الحرب، والفتنة: الابتلاء والاختبار، من قولهم: قن الصانع الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار ، والقبيل: الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أمر سبحانه آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعل الأرض مستقرا لهما ، وذكر أن الشيطان عدو لهما — ذكر هنا أنه أنزل له ولبنيه كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم كاللباس الذى يسترون به عوراتهم ويتخذونه للزينة ولباس الحرب كالمغافر والجواشن ونحوها ، فعليكم أن تشكروه تعالى على هذه المنن العظام ، وتعبدوه وحده لا شريك له .

الإيضاح

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا) نادى الله بنى آدم وامتن عليهم بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وتعدد أنواعه ، من الأدنى الذى يستر العورة عن أعين الناس إلى الأعلى من أنواع الخلل التى تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد ، إلى ما فيها من الزينة والجمال .

والخلاصة — إنه يقول : يا بنى آدم ، بقدرتنا قد أنزلنا عليكم من سمائنا لتدبير أموركم لباسا يوارى سوءاتكم ، وریشا تنزینون به فى المجالس والمجتمعات ، وهو أعلى اللباس وأكمله ، وما دون ذلك وهو ما یتقى الحر والبرد .

ومعنى إنزال ما ذكر من السماء — إنزال مادته من القطن والصوف والوبر والحریر وریش الطیر وغيرها مما ولدته الحاجة وافتن الناس فى استعماله ، بعد أن تعلموا وسائل صنعه بما أوجد فیهم من الغرائز والصفات التى بها غزلوا ونسجوا وحاكوا ذلك على ضروب شتى وخاطوه على أشكال لا حصر لها ولا عدد ، ولا سيما فى هذا العهد الذى رقيت فيه الصناعات إلى أقصى مدى وأبعد غاية .

ولا شك أن امتنانه علينا بلباس الزينة دليل على إباحتها والرغبة فى استعمالها ، فالإسلام دين الفطرة ، وليس فيه ما يخالف ما تدعو إليه الحاجة ، وحب الزينة من أقوى غرائز البشر الدافعة لهم إلى إظهار سنن الله فى الخليقة .

(ولباس التقوى ذلك خير) المشهور من كلام التابعین أن لباس التقوى لباس معنوى لاحسنى ، فقد قال ابن زید : لباس هو التقوى ، وعن ابن عباس : إنه الإيمان والعمل الصالح ، فإنهما خير من الریش واللباس . وروى عن زید بن علی بن الحسين : أنه لباس الحرب كالدرع والمغفر والآلات التى یتقى بها العدو ، واختاره أبو مسلم الأصفهانی ، ويدل علیه قوله تعالى : « سَرَّابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَّابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ » .

(ذلك من آيات الله لعلمهم یدكرون) أى ذلك الذى تقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات قدرته ودلائل إحسانه وفضله على بنى آدم .

وهذه النعم تؤهلهم لتذكر ذلك الفضل والقيام بما يجب عليهم من الشكر ، والابتعاد من فتنه الشيطان وإبداء العورات أو الإسراف فى استعمال الزينة إلى نحو ذلك .

(يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) من سنن العربية تكرار النداء في مقام التذكير والوعظ : أى لا تغفلوا يا بنى آدم عن أنفسكم فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم والتحيل فى خداعكم وإيقاعكم فى المعاصى ، كما وسوس لأبويكم آدم وحواء فزين لهما معصية ربهما فأكلا من الشجرة التى نهاها عنها ، وكان ذلك سببا فى خروجهما من الجنة التى كانا يتمتعان بنعيمها ، ودخولهما فى طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها .

(ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما) أى إنه أخرجهما من الجنة وكان سببا فى نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لأجل أن يريهما سوءاتهما . وفى ذلك إيماء إلى أنهما كانا يعيشان عريانين ، لأنه ليس فى الأرض ثياب تصنع ، وليس هناك إلا أوراق الأشجار ، وعلماء العاديات والآثار يحكمون حكما جازما بأن البشر قبل اهتدائهم إلى الصناعات كانوا يعيشون عراة ، ثم اكتسوا بورق الشجر وجلود الحيوانات التى يصطادونها ، ولا يزال المتوحشون منهم إلى الآن يعيشون كذلك .

(إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) أى إن إبليس وجنوده من شياطين الجن يرونكم ولا ترونهم ، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد ، ووجوب العناية باتقائه أعظم ، كما يرى ذلك فى بعض الأوبئة التى ثبت وجودها فى هذا العصر بالجحر (التليساكوب) فإنها تنفذ إلى الأجسام بنقل الذباب أو البعوض أو مع الطعام أو الشراب أو الهواء ، فتتوالد وتنمو بسرعة ، وقد تسبب للإنسان أمراضا مستعصية العلاج كالحمى الصفراء (الملاريا) والتفويد والتيفوس والسل والسرطان إلى نحو أولئك .

وفعل جنة الشياطين فى أرواح البشر كفعل هذه الجنة التى يسميها الأطباء (الميكروبات) فى الأجسام ، فكلاهما يؤثر من حيث لا يرى فيتقى ، والثانية تتقى بالأخذ بنصائح الأطباء واستعمال الوسائل العلاجية الواقية .

والوقاية منها ضربان :

(١) اتخاذ الأسباب التي تمنع مجيئها من الخارج كالذى تفعله الحكومات في المحاجر الصحية في الثغور ومداخل البلاد .

(٢) تقوية الأبدان بالأغذية الجيدة والنظافة التامة لتقوى على مقاومة هذه الجنة والفتك بها إذا وصلت إليها ، كما يتقى وصول العُث إلى الصوف بمنع وصول الغبار إليه أو بوضع الدواء الذى يسمى (الفتالين) إذ يقتله برائحته .

والأولى تتقى أيضا بإرشاد طب الأنفس والأرواح الذى يهذى إلى الوقاية من فتك جنة الشياطين فيها بالوسوسة وتزيين الأباطيل والشُرور المحرمة في هذا الطب لضررها ، فداخلها في أنفسهم وتأثيرها في خواطرهم كدخول تلك الجنة في أجسادهم وتأثيرها في أعضائهم من حيث لا ترى .

والوقاية منها على ضربين :

(١) بتقوية الأرواح بالإيمان بالله وصفاته وإخلاص العبادة له والتخلق بالأخلاق الكريمة وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فتبتعد تلك الأرواح الشيطانية عنها ولا تستطيع القرب منها .

(٢) بمعالجة هذا الوسواس بعد طروئه كما يعالج المرض بعد حدوثه بالأدوية التي تقتله وتمنع امتداد ضرره .

والخلاصة - إن هذه الجملة (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) جاءت تعليلا للنهي عن تمكين الشيطان مما يبغي من الفتنة ، وتأكيذا للتحذير منه ، وتذكيرا بشديد عداوته وضرره (والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان شديد الأثر عظيم الخطر) .

(إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أى إن سنتنا جرت بأن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته إيمان إذعان تركوبه نفوسهم ، لما بينهما من التناسب والتشاكل

واكتساب الكفار لولاية الشياطين جاءت بسبب استعدادهم لقبول وسوستهم وإغوائهم وعدم احتراسهم من الخواطر الرديئة ، كما اكتساب ضعفاء البنية للأمراض باستعدادهم لها وعدم احتراسهم من أسبابها كتناول الأطعمة والأشربة الفاسدة والوجود في جوٍّ مملوء بالجراثيم القتالة بعدم تعرضه للشمس والنور والهواء المتجدد .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ
رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
مُهْتَدُونَ (٣٠) .

شرح المفردات

الفاحشة : الفعلة المتناهية في القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراة
كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون لا يطوف بيت ربنا في ثياب عصيناه بها ، والقسط :
الاعتدال في جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط ، وإقامة الشيء : إعطاؤه
حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط ، والوجه : قد يطلق على
العضو المعروف من الإنسان كما في قوله « قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »
وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما في قوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا »

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم - ذكر هنا أثر ذلك التسلط عليهم وهو الطاعة لهم فى أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبح .

الإيضاح

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) أى وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله ممن جعلوا الشياطين أولياء لهم - قبيحا من الأفعال كتمريضهم حين الطواف بالبيت ، فلامهم الناس على ذلك ، قالوا وجدنا آباءنا يفعلون كما نفعل فنحن نفتدى بهم ونستن بسنتهم ، والله أمرنا بذلك فنحن نتبع أمره فيه . وقد رد الله عن الأمر الثانى بأمر رسوله أن يدحضه بقوله :

(قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) أى إن هذا الفعل من الفحشاء والله بكأله منزه أن يأمر بها ، وإنما يأمر بها الشيطان كما جاء فى قوله « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

ثم رد عليهم الوجه الأول ووبخهم على تقليد الآباء والأجداد بقوله :

(أنقولون على الله ما لاتعلمون) أى إنكم باتباعكم للآباء والأجداد فى الآراء والشرائع غير المسندة إلى الوحي تقولون على الله ما لاتعلمون أنه شرعه لعباده .

والخلاصة — إنهم فى عملهم الفاحشة استندوا إلى أمرين أمر الله بهما وتقليد الآباء والأجداد ، وقد رد الله عليهما فى كل منهما ، فرد على الأول ببيان أن الله لا يأمر بفاحشة وأن الذى يأمر بذلك إنما هو الشيطان ، ورد على الثانى بأن التشريع لا يعطى إلا بوحي من عنده إلى رسول يؤيده بالآيات اليبينات وهو لم ينزل عليهم به ، فتقو لهم

هذا إنما هو اتباع للأهواء في هو قبيح تنفر منه الطباع السليمة ، وتستنقذه العقول الراجحة الحكيمة .

وبعد أن أنكر عليهم أن يكونوا على علم بأمر الله في فعلوا - بين ما يأمر به من محاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والخصال بقوله لرسوله :

(قل أمر ربى بالقسط) أى قل لهم : إنما أمرنى ربى بالاستقامة والعدل فى الأمور كلها .

(وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى وقل لهم أمرنى ربى بالقسط ، فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، أى أعطوا توجهكم إلى الله تعالى ، حقه من صحة النية وحضور القلب وصرف الشواغل عند كل مسجد تعبدونه فيه ، سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكرًا ، وادعوه وحده مخلصين له الدين ، ولا تتوجهوا إلى غيره من عباده المكرمين كالملائكة والأنبياء والصالحين زعماء منكم أنهم يشفعون لكم عند ربكم ويقرّبونكم إليه زلفى ، وقد جعلتم هذا من الدين افتراء على الله وقولا عليه بغير علم .

وبعد أن أبان أصل الدين ومناط الأمر والنهى فيه - ذكرنا بالبعث والجزاء على الأعمال فقال :

(كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) أى كما بدأكم ربكم خلقا وتكويننا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة وأنتم فريقان :

(١) فريق هداه الله فى الدنيا ببعثة الرسل فاهتدى بهديهم وأقام وجهه له وحده فى العبادة ودعاه مخلصا له الدين لا يشرك به أحداً .

(٢) فريق حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان وإعراضهم عن طاعة بارئهم .

وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، وإنما حقت

على الفريق الثانى الضلالة ، لأنهم اقترفوا أسبابها فوجدت نتائجها ومسبباتها ،
لأنها جعلت غرائزهم فكانوا عليها مجبورين ، يرشد إلى ذلك قوله :

(إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) أى إنهم
حين أطاعوا الشياطين فيما زينوا لهم من الفواحش والمنكرات ، فكانهم ولوهم
أمورهم من دون الله الذى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر ،
وهم مع عملهم هذا يحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات ، يجعل
التوجه إلى غير الله والتوسل إليه في الدعاء مما يقر بهم إلى الله زلفى ، قياسا على
الملوك الجاهلين الذين لا يقبلون الصنفح عن مذنب إلا بوساطة بعض المقربين عنده .

والكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون ، وهم ما بين كافر جحود
للحق كبرا وعنادا كأعداء الرسل في عصورهم وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله
كما حكى الله عن فرعون ومنه « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا »
وكالكبراء من قريش أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث في جمع
كثير منهم وهم الذين قال الله فيهم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » وهؤلاء هم الأقلون عددا - وكافر بالتقليد واتباع نزغات
الشيطان ، أو باتباع الآراء الخاطئة والنظريات الفاسدة ، وهم الذين قال الله فيهم :
« قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » وهؤلاء هم جبهة الناس في جميع الأمم .

وذهب كثير من العلماء إلى أن من بذل جهده في البحث والنظر في الحق ،
ثم اتبع ما ظهر له أنه الحق على حسب ما وصلت إليه طاقته ، وكان مخالفا في شىء
منه لما جاءت به الرسل - لا يدخل في مدلول هذه الآية ونحوها ، بل يكون معذورا
عند الله لقوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السالفة أنه أمر عباده بالعدل في كل الأمور واتباع الوسط منها — طلب إلينا أن نأخذ الزينة في كل مجتمع للعبادة ، فنستعمل الثياب الحسنة في الصلاة والطواف ونحو ذلك ، كما أباح لنا أن نأكل ونشرب مما خلق الله بشرط ألا نسرف في شيء من ذلك .

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : كان الناس يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها ، فجاءت امرأة فأنقت ثيابها فطافت ووضعت يدها على قبلها وقالت :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) الزينة ما يزين الشيء أو الشخص وأخذها التزيين بها ، والمراد بالزينة هنا الثياب الحسنة كما يدل على ذلك سبب نزول الآيات ، وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس وهو ما يستر عورته ، وهو الواجب لصحة الصلاة والطواف ، وما زاد على ذلك من التجميل بزينة اللباس عند الصلاة ولا سيما صلاة الجمعة والعيدين فهو سنة لا واجب .

ويرى بعض العلماء وجوب الزينة للعبادة عند كل مسجد على حسب عرف الناس في تزينهم في المجمع والمحافل ، ليكون المؤمن حين عبادة ربه مع عباده المؤمنين في أجمل حال لا تقصير فيها ولا إسراف .

أخرج الطبراني والبيهقي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليلبس ثوبه ، فإن الله عز وجل أحق من تزين له فإن لم يكن له ثوبان فليتزير إذا صلى ، ولا يشتمل أحدكم في صلاته اشتمال اليهود » .

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء » .

وعلى الجملة فالزينة تختلف باختلاف حال الإنسان في السعة والضيقة ، فمن عنده ثوب واحد يستر جميع بدنه فليستر به جميع بدنه وليصل به ، فإن لم يستر إلا العورة كلها أو الغليظة منها وهي السوءتان فليستر به ما يستره ، ومن وجد ثوبين أو أكثر فليصل بهما .

وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصل من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين وكان سببا في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفراداً وجماعات لبس الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام ، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراة الأجسام رجالا ونساء حتى ذكر بعض المنصفين من الإفرنج أن لانتشار الإسلام في إفريقية منة على أوربا بنشره للمدنية بين أهلها ، إذ ألزمهم ترك العري وأوجب لبس الثياب ، فكان ذلك سببا في رواج تجارة المنسوجات .

وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية .

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) أى خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات ، وكلوا واشربوا من الطيبات ، ولا تسرفوا فيها ، بل عليكم بالاعتدال في جميع ذلك ، لأن الله الخالق لهذه النعم لا يحب المسرفين فيها ،

بل يعاقبهم على هذا الإسراف بمقدار ما ينشأ عنه من المضار والمفاسد ، لأنهم قد خالفوا سنن الفطرة وجنوا على أنفسهم في أبدانهم وأموالهم ، وجنوا على أسرهم وأوطانهم ، إذ هم أعضاء في جسم الأسرة والأمة .

روى النسائي وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير تحجيلة (كبر وإعجاب بالنفس) ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده » .

وعن ابن عباس أنه قال : كل ما شئت ، واشرب ما شئت ، والبس ما شئت إذا أخطأتك اثنتان : سرف أو تحجيلة .

والإسراف : تجاوز الحد في كل شيء ، والحدود منها :

(١) طبعي كالجوع والشبع والظم والرى ، فمن أكل إذا أحس بالجوع أو كف عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستند الاستزادة ، أو شرب إذا شعر بالظمأ واكتفى بما يزيله ولم يزد على ذلك لم يكن مسرفاً في أكله وشربه وكان طعامه وشربه نافعاً له .
(٢) اقتصادي وهو أن تكون النفقة على نسبة معينة من دخل الإنسان بحيث لا تستغرق كسبه .

(٣) شرعي فإن الشارع حرم من الطعام الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم من الشراب الخمر ، وحرم من اللباس الحرير الخالص ، والغالب على الرجال دون النساء ، وحرم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة وعده من السرف المنهى عنه ، فهذه الأشياء لا يباح استعمالها إلا لضرورة تقدر بقدرها .

والمعول عليه في الإنفاق في كل طبقة عرف المعتدلين فيها ، فمن تجاوز طاقته مباراة من هم أغنى منه وأقدر كان مسرفاً ، وكـم جرّ الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ولا سيما في المهور وتجهيز العرائس وحفل العرس والمآتم (الزاد) .

ثلاثة تشقى بها الدار العرس والمآتم والزاد

وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد

ولا سيما فى البلاد التى تأتى إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية عنها ، إذ تذهب الثروة إلى غير أهلها ، وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استدلالهم والعدوان عليهم .
والخلاصة — إن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية ، ولكن ضل فى ذلك فريقان :

(أ) فريق البخلاء والغلاة فى الدين الذين تركوا الأكل والشرب من الطيبات المستنذة ، إما بخلا وشحاً أو تخرجاً وتأثماً ، إما دائماً أو فى أوقات مخصوصة من السنة .
(ب) فريق المترفين الذين أسرفوا فى اللذات البدنية وجعلوها جل همهم ، فهم يأتون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، وليس لهم غاية يقفون عندها ، أو نهاية ينتهون إليها .

(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) إخراج الله الزينة خلق موادها وتعليم طرق صنعها بما أودع فى فطرتهم من حبها والميل إلى الافتنان فى استعمالها ، إذ خلقهم مستعدين لإظهار آياته فى جميع ما خلق فى هذا العالم الذى يعيشون فيه ، بما أودع فى غرائزهم من الميل إلى البحث فى كشف المجهول والاطلاع على خفايا الأمور ، فهم لا يدعون شيئاً عرفوه بحواسهم أو عقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى وأوجه لانهاية لها ، ولن تنتهى بحوثهم مادام الإنسان على ظهر البسيطة .
وغيره حب الزينة وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب فى اتساع أعمال الفلاحة والزراعة ورقى ضروب الصناعة ، واتساع وسائل العمران ، ومعرفة سنن الله وآياته فى الأكوان ، وهما لا يذمان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن شكر المنعم بهما .

والخلاصة — إن الدين لم يحرمهما إلا إذا كانا عائقين عن الكمال الروحى والكمال الخلقى ، وإنه لم يجعل تركهما قرينة إلى الله كما جرى على ذلك الوثنيون من البراهمة وغيرهم وقدمهم فى ذلك بعض المسلمين وصاروا يبتون فى الأمم الإسلامية

نعالم تقضى بأن روح الدين ومنح العبادة في التنشف وحرمان النفس من التمتع بلذات الحياة ، وقد بين الله وجه الصواب في ذلك بقوله لرسوله :

(قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) أى قل أيها الرسول لأمتك : إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركون فيها غيرهم تبعاً لهم وإن لم يستحقها مثلهم ، وهي خالصة لهم يوم القيامة .

وقصارى ذلك — إن الذين يورث أهلهم سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى » وقوله : « وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا » . ذاك أن المؤمن يزداد علماً وإيماناً بربه وشكراً له كلما عرف شيئاً من سننه وآياته في نفسه أو في غيرها من الكائنات ، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح كشكر اللسان بالثناء عليه وشكر سائر الأعضاء كذلك ، ففي حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » والسرف في هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة ، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقبة وبدنية ، ولهما التأثير العظيم في جودة النسل الذي به يكثر سواد الأمة .

والملابس الجيدة النظيفة لها فوائد :

(١) حفظ الصحة .

(٢) كرامة من يتجمل بها في نفوس الناس .

(٣) إظهار نعمة الله على لابسها ، والمؤمن يثاب بنيته على كل ما هو محمود من

هذه الأمور بالشكر عليها .

روى أبو داود عن أبي الأحوص قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى ثوبٍ دُونَ قَتال : أَلَمْ مال ؟ قلت نعم . قال من أىِّ المال ؟ قلت قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق . قال : فإذا آتاك الله فليزأثر نعمة الله عليك وكرامته لك » .

وأخرج الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .
وقد كانت العرب تحرم زينة اللباس فى الطواف تعبداً ، وتحرم الأدهان ونحوه حال الإحرام بالحج كذلك ، وتحرم من الأناغم والحرث ما ذكر فى سورة الأنعام ، وحرم أهل الكتاب كثيراً من الطيبات .

فجاء الدين الإسلامى الجامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة والمطهر للنفوس والمهذب للأخلاق ، فأنكر هذا التحكم الخالف لسنن الفطرة وبين أن هذا التحريم لم يكن إلا من وساوس الشيطان ولم يوح به الله إلى أنبيائه ورسله المصطفين الأخيار .
(كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) أى إن هذا التفصيل لحكم الزينة والطيبات الذى ضل فيه كثير من الأمم والأفراد ما بين إفراط وتفریط — لا يعقله إلا الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم ، ونحن قد فصلناه على لسان هذا النبى الأمى الذى لم يكن يعرف شيئاً من تاريخ البشر فى أطوار بداوتهم وأطوار حضارتهم قبل أن ننزلها عليه ، فكان ذلك آية دالة على نبوته ، إذ ما كان لمثله أن يعلمها إلا بالوحي من عندنا ، ولولا الكتاب الكريم لما خرجت العرب من ظلمات الوثنية والجهالة إلى ذلك النور الذى صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والقانون والآداب وما أحييت من علوم الأوائل .

ولكن وأسفاً قد أضحى المسلمون من أجهل الشعوب بسنن الله فى الأكوان وبالعلوم والمعارف اللازمة لتقدم الحضارة والمدنية ، وأصبحوا فى مؤخرة الأمم وصاروا مضرب الأمثال فى التأخر والجمول والكسل ، وبذا استكانوا وذلوا وصاروا أققر الأمم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم ، وخالفوا ما رسمه لهم ذلك الدين من أن لهم زينة

الدنيا وطيباتهم وسعادتهم وملكنها ، وأن عليهم أن يشكروا الله على ما يؤتيهم من ذلك ، وأن عليهم أن يقوموا بما يرضيه من اتباع الحق والعدل وكل ما تقتضيه خلاقهم في الأرض .

ولقد بلغ الجهل بكثير منهم أن ظن (و بعض الظن إثم) أن دين الإسلام هو سبب ضعف المسلمين وجهلهم وذهاب ملكهم ، ولكن كتاب الله وسنة رسوله وتاريخ هذه الأمة شاهد صدق على فساد هذه القضية وتزييف تلك الدعوى ، فليس لها من دعائم تستند إليها ، وتقف بها على رجلها .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

الفواحش: واحدها فاحشة، وهي الخصلة التي يتبع فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ؛ ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقتل بالفحشاء والبذاء المتنامى في القبح ، والإثم لغة : القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصي كبائرها كالقواحش وصغائرهما كأنظر بشهوة لغير الحليلة ، والبغى: تجاوز الحد، وقد قنوا بغى الجرح : إذا تجاوز الحد في الفساد، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَتَجَّاهُ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر - تقدست أسماؤه - في الآية السالفة على المشركين وغيرهم من أرباب الملل الأخرى تحريم زينة الله التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق - ذكر هذه

أصول المحرمات التي حرمها الله على عباده لضررها ، وجميعها من الأعمال الكسبية
لأن المواهب الخلقية ، ليستبين للناس أن الله لم يحرم على عباده إلا ما هو ضار لهم .

الإيضاح

(قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق
وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون) أى قل أيها
الرسول هؤلاء المشركين وغيرهم ممن ظلموا أنفسهم وافتروا على الله الكذب فزعموا
أن الله حرم على عباده ما أخرج لهم من الطيبات كما حرم عليهم الزينة : ما حرم
ربى فى كتبه على السنة رسله إلا هذه الأنواع الست الآتية لما لها من شديد الضرر
وعظيم الخطر على أنفسهم وعلى الأمة جمعاء ، ومن ثم جعل تحريمها دائماً لا يباح
بحال ، وهى :

(١ - ٢) الفواحش الظاهرة والباطنة ونقدم بيانها وشرحها فى سورة الأنعام
وهى إحدى الوصايا العشر التى ذكرت هناك .

(٣) الإثم أى ما يوجب الإثم والذم — وعطفه على ما قبله من عطف العام
على الخاص .

(٤) البغى وهو الإثم الذى فيه تجاوز لحدود الحق أو اعتداء على حقوق الأفراد
أوجاعاتهم ، ومن ثم قرن بالعدوان فى قوله : « تَطَاهَرُونَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » .
وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأن تجاوز الحدود المعروفة قد يكون فيما لا ظلم
فيه ولا فساد ولا هضم لحقوق الأفراد والجماعات كما فى الأمور التى ليس لهم فيها حقوق
أو التى تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمصاحبة
لهم يرجونها بيدها .

(٥) الشرك بالله وهو أقبح الفواحش . فلا تقوم عليه حجة من عقل ولا برهان
من وحى ، وسميت الحجة سلطاناً لأن لها سلطاناً على العقل والقلب .

وفي هذا إيماء إلى أن أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحى من الله يؤيده البرهان كما قال : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » . كما أن فيه إرشادا إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين ، حتى كأن من جاء بالبرهان على الشرك يصدق ، وهذا من فرض المحال مبالغة في فضل الاستدلال كما قال : « أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

(٦) القول على الله بغير علم ، وهو من أسس المحرمات التي حرمت على ألسنة الرسل جميعا ، إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة ، وسبب الابتداع في الدين الحق ، وقد انتشر الابتداع بين أهله وتحكمت بينهم الأهواء واتبعوا سنن من قبلهم كما جاء في الحديث : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ؛ قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » رواه الشيخان ورأس البلية في هذا الابتداع القول في الدين بالرأى ، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا إلا استدل على بدعته بالرأى ، وقد ظهرت مبادئ هذه البدع والأهواء في القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن .

وما شرع من اجتهاد الرأى في حديث معاذ وغيره فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته ، فقد أكمل الله دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله ، وليس لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادى إلى الله فيقول هذا حكم الله وهذا دينه ، بل يقول هذا مبلغ اجتهادى ، فإن كان صوابا فمن توفيق الله وإلهامه ، وإن كان خطأ فنى ومن الشيطان .

والخلاصة — إنه لا ينبغى لأحد أن يحرم شيئا تحريما دينيا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئا إلا بنص صريح عن الله ورسوله ، ومن تهجم على ذلك فقد جعل نفسه شريكا لله ، ومن تبعه في ذلك فقد جعله رباله ، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول في الدين بالرأى .

وقد أنكر الله على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان فقال : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جماع المحرمات على بنى آدم لما فيها من الفساد والمضار للأفراد والجمتمع إثر بيان المباحات من الزينة والطيبات من الرزق بشرط عدم الإسراف فيها — ذكر هنا حال الأمم فى قبول هذه الأصول أو ردها ، والسير على منهاجها بعد قبولها أو الزينغ عنها .

الإيضاح

(ولكل أمة أجل) أى قل أيها الرسول لقومك ولغيرهم : لكل أمة أمد مضروب لحياتها مقدر لها على حسب السنن التى وضعها الخالق لوجودها . وهذا الأجل على ضربين ، أجل لوجودها فى الحياة الدنيا ، وأجل لعزها وسعادتها بين الأمم .

(فالأول) أجل لأمة بعث فيها رسول لهدايتها فردوا دعوته كبرا وعنادا واقترحوا عليه الآيات فأعطوها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا فاستمروا فى تكذيبهم فأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر ، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم .

وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولى الدعوة الخاصة بأقوامهم ،

وقد انتهى ذلك ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه الله بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها ، ومن ثم لم يعط الله تعالى رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه .

(والثانى) أجل مقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة باستقلالها ومكانتها بين الأمم وهذا منوط بسنن الله فى الاجتماع البشرى وعوامل الرقى وال عمران .

وأسباب انتهاء هذا الاجتماع لا تعدو مخالفة ما أرشدت إليه الآيات السالفة كإسراف فى الزينة أو إسراف فى التمتع بالطيبات ، أو باقتراف الفواحش والآثام والبغى على الناس ، أو بالتوغل فى خرافات الشرك والوثنية ، أو بالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه الله لها من الأحكام .

فالأمم التى ترتكب هذه الضلالات والمفاسد يسلبها الله سعادتها ويسلط عليها من يستذلها كما قال تعالى : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

وهناكم شاهد صدق ما نقول :

إن الأمم التى كان لها شأن يذكر فى التاريخ كالرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم من سلب ملكهم كله أو بعضه — لم يكن لذلك من سبب سوى ما أسلفنا . وهذا الضرب من الأجل وإن عرفت أسبابه ، لا يمكن أن يحمد بالسنين والأيام ولكن الله يعلم تحديده بما أوجده من الأسباب التى تنتهى بمسبباتها ، وبالمقدمات التى تترتب عليها نتائجها ، كما قال :

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الساعة لغة : أقل مدة من الزمن أى فإذا جاء الوقت الذى وقته الله لهلاكهم وحلول العقاب بهم لا يتأخرون عنه بالبقاء فى الدنيا أقل تأخر ، كما أنهم لا يتقدمون أيضا عن الوقت الذى جعله لهم وقتا للقاء والهلاك .

وفى الآية إيماء إلى أن الأمة قد تملك طلب تأخير الهلاك قبل مجيئه أى قبل أن تغلبها على إرادتها أسباب الهلاك ، بأن تترك الفواحش والآثام والظلم والبنى والإسراف المفسد للأخلاق وخرافات الشرك المفسدة للعقول وتترك البدع فى التحريم والتحليل بما لم يخاطب به المولى عباده ، بأن يقوم فيها جماعة من المصالحين ، فيرشدوها إلى تغيير ما بأنفسها من الفساد ، فيغير الله ما بها .

وهذا من استئخار الهلاك أو منعه عنها قبل مجيء أجلها .

وتأثير الفسق والفساد فى الأمم يشبه تأثيره فى الأفراد ، فكما أن الأطباء متفقون على أن السكر من أسباب الأمراض البدنية والعقلية التى تفضى إلى الموت ، وعلى أن تأثيره فى البدن القوى دون تأثيره فى البدن الضعيف ، وعلى أن القليل منه يبطئ تأثير ضرره عن تأثير ضرر الكثير منه - كذلك أطباء الاجتماع متفقون على أن الإسراف فى الفسق والترف مفسد للأمم ، وأن الظلم والبنى والغلو فى المطامع من أسباب الهلاك والدمار ، ولكن قد يكون لدى بعضها ما تقاوم به تأثير هذه الأدوات الاجتماعية كالنظام ومراعاة سنن الاجتماع حتى فى إخفاء الظلم وإقناع الوسائل والأسباب فى لباس الظلم لباس العدل وإبراز إفساده فى صورة الإصلاح وإيجاد أنصار من المظلومين يساعدون فى بقاء هذا الظلم ، وإقناع الكثير منهم بأن هذا خير لهم وأبقى ، غير أن كل هذا لا يمنع انتقام الله منهم ، وإنما يؤخره على مقتضى سننه فى عباده ، ولا يمنعه عنهم إلا الرجوع إلى الحق والاعتدال والصلاح والإصلاح .

والأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو الذى يسميه العلماء بالعمر الطبيعى ، فالطبيب إذا فحص الجسم ورأى أعضاءه الرئيسية ومقدار مناعتها أمكنه أن يقدر له مدة معينة من الحياة إذا عاش بنظام واعتدال على حسب ما وضعه الله من السنن ، فإذا هو قتل أو غرق قبل انتهاء العمر المقدر له يقال مات قبل انتهاء عمره الطبيعى أو التقديرى ولكن مات بأجله الحقيقى عند الله .

وما ورد من أن الدعاء وصلة الرحم يطيلان العمر ، فإنما ذلك بالنسبة للأجل
التقديرى أو الطبيعى الذى هو مظهر سنن الله فى الأسباب والمسببات ، فإن الدعاء
الذى منشؤه قوة الإيمان بالله والرجاء فى معونته وتوفيقه للمؤمن فيما يعجز عن أسبابه ،
من أسباب طول العمر ، وكذلك صلة الرحم من أهم أسباب هناء العيش ، وهناؤه
من أهم العوامل فى إطالة العمر .

كما دلت التجارب على أن الهموم والأكدار خصوصا ما كان منها داخليا
كقطعية الأرحام واليأس من روح الله ومعونته مما يضعف قوى النفس ويهرم
الجسم قبل إبان هرمه ، وقد عرف هذه الحقيقة ذلك الشارع الحكيم حين قال :

والهم يخترم الجسم نخافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

ومثلها فى ذلك قلة الغذاء الذى يحتاج إليه البدن أو كثرتة ، والإسراف
فى كل لذة ، والسكنى فى الأمكنة التى لا يدخاها ضوء الشمس ولا يتخللها الهواء
بالقدر الذى يقتل الجراثيم .

والأمم العريقة فى المدنية والحضارة والعالة بالسنن الإلهية فى الصحة والسقم والقوة
والضعف تحصى دائما عدد المرضى والموتى وتضع لذلك نسبا حسابية تعرف بها متوسط
الآجال فى كل منها .

وكذلك قد ثبت ثبوتا لا ريب فيه أن من أسباب قلة الوفيات تحسين وسائل
المعيشة والاعتدال فيها ، وتوقى الأمراض باجتناى أسبابها المعروفة قبل وقوعها
ومعالجتها بعد حدوثها .

وكل ما يقع فالعلم الإلهى قد سبق به ، وكتاب الله وسنة رسوله يؤيدان ذلك
أتم التأييد .

وخلاصة معنى الآية — إن لكل أمة أجلا لا يتأخرون عنه إذا جاء ،
ولا يتقدمون عليه أيضا ، فهلكوا قبل مجيئه ، ونحو الآية قوله : « مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ » .

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ،
فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت أسمائه أن لكل أمة أجلا لا تعدوه — حكي هنا ما خاطب
به كل أمة على لسان رسولها وبينه لها من أصول الدين الذى شرعه لهدايتها وتكميل
فطرتها ، وأرشدها إلى أنها إن كانت مطيعة تتقى الله فيما تاتى وتذر ، وتصلح أعمالها
فلا يحصل لها فى الآخرة خوف ولا حزن ، وإن هى تمردت واستكبرت وكذبت
الرسول كانت عاقبتها النار ، وبئس القرار .

الإيضاح

(يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من
البشر يتلون عليكم آياتى التى أنزلها عليكم لبيان ما أمركم به من صالح الأعمال وترك
ما أنهاكم عنه من الشرك والردائل وقبيح الأعمال — فمن اتقى منكم ما نهيته عنه
وأصلح نفسه بفعل ما أوجبه عليه فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة ، ولا هم
يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم .

وحكمة كون الرسول منهم أنه أقطع لعذرهم وأظهر فى الحججة عليهم ، إذ معرفتهم
بأحواله تبين لهم أن المعجزات التى ظهرت على يديه إنما هى بقدرة الله لا بقدرته —
إلى ما فى ذلك من حصول الألفة ، فالجنس يألف الجنس ويركن إليه ، ومن ثم
قال : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا »

(والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

الاستكبار عن قبول الآيات : رفضها كبرا وعنادا لمن جاء بها كما حدث من رؤساء قريش حين استكبروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم إماما لهم ، إذ رأوا أنفسهم أحق بالرياسة منه ، لأنهم أكثر منه مالا وأعز نفرا .

والعنى — إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسدا له على الرياسة وتفضيلا لأنفسهم عليه ، أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار يخلدون فيها أبدا .

والخلاصة — إن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتقاءهم لما يفسد فطرتهم من الشرك والمعاصي ، وإصلاح أنفسهم بالطاعة يوجب الأمن وعدم الخوف مما يتوقع وعدم الحزن على ما وقع منهم في الدار الأولى ، وأن تكذيب ما جاءوا به من الآيات والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه المكث في نار جهنم خالدين فيها أبدا كفاء ما فعلوا من التمرد وعصيان أوامر الدين .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السابقة عاقبة المكذبين بآياته المستكبرين عن قبولها والإذعان لها - ذكر هنا أن من أشدهم ظلما من يتقولون على الله الكذب ، فينسبون إليه ما لم يقله ، كمن يثبت الشريك لله سواء كان صنما أو كوكبا ، أو يضيف إليه أحكاما باطلة ، أو يكذب ما قاله كمن ينكر أن القرآن نزل من عند الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه ، أو حرم عليهم من الدين ما لم يحرمه ، أو عزا إلى دينه أحكاما لم تنزل على رسوله .

(أو كذب بآياته) المنزلة عليهم سواء أكان بالقول أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها أو الاستكبار عن اتباعها أو بتفضيل غيرها عليها بالعمل بها .

(أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) المراد بالنصيب هنا ما قدر لهم من خير أو شر وسعادة أو شقاء ، والمراد من الكتاب كتاب المقادير الذى كتب الله فيه نظام العالم كله ، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب والدواعى وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض إلى نحو ذلك .

والمعنى — إن هؤلاء المفتريين نصيبهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال ، فهم مع ظلمهم وافتراءهم على الله لا يحرمون مما قدر لهم إلى انقضاء آجالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « كَلَّا بُدُّهُ هُوَ لَاءَ وَهُوَ لَاءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ » وقوله :

« نَجْمُهُمْ قَبِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

(حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الرسل هنا هم الملائكة الموكلون بالتوفى أى قبض الأرواح من الأجساد ، أى إنهم ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى باتهاء آجالهم وجاءتهم رسلنا يقبضون أرواحهم .

(قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟) أى سألهم رسل الموت حين التوفى على سبيل الزجر والتوبيخ : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم فى الدنيا من دون الله لقضاء الحاجات ودفع المضرات ؟ فلندعوهم لينجوكم مما أنتم فيه من شدة وعذاب .
(قالوا ضلوا عنا) ضلوا: أى غابوا وذهبوا ، لاندرى أين مكانهم ، أى غابوا عنا فلا نرجو منهم النفع ولا دفع الضر .

(. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) أى واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم بإيادهم وعبادتهم لهم كافرين ، إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى رُءُوان الأمراء والسلاطين ، وحاش لله أن يتخذ الأعوان والمساعدين ، فالله غنى بعلمه الحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان ، فإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس ويعجز عن معرفة أحوالهم .

وخلاصة هذا — زجر الكافرين عما هم عليه من الكفر وحماتهم على النظر والتأمل فى عواقب أمورهم ، والتحذير من التقايد الذى سيرديهم فى الهاوية .
(قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) أى يقول ملائكتهم بأمره يوم القيامة لهؤلاء الكافرين : ادخلوا بين أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ، أى أمم تقدم زمانهم على زمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى لا يسوق الكفار بجمعهم إلى النار دفعة واحدة ، بل يدخلهم فوجا فوجا فيكون منهم سابق ومسبق ، ويشاهد الداخل من الأمة فى النار من سبقه .

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) أى كلما دخلت جماعة منهم فى النار ورأت

ما حل بها من الخزي والنكال - لعنت أختها في الدين والملة ، إذ هي قد ضلت باتباعها والافتداء بها في كفرها كما قال : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

والخلاصة - إن المشركين يلعنون المشركين ، واليهود تلعن اليهود ، والنصارى تلعن النصارى ، وهكذا القول في سائر الديانات الضالة كالمجوس والصابئة .

(حتى إذا أداركوا فيها جميعا قالت أخواهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتاهم عذابا ضعفا من النار) اداركوا ، أى تلاحقوا وأدرك بعضهم بعضا واستقر معه ، وضعفا أى مثلاً أى حتى إذا تتابعوا واجتمعوا كلهم فيها ، قالت أخرى كل منهم وهم أتباعهم وسفلتهم لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء : ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق بانباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر أعمالنا ، فأعطهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم في أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين : ضعفا للضلال ، وضعفا للاضلال .

ومعنى قوله لأخراهم أى في شأنهم ولأجل ضلالهم ، وليس المراد أنهم ذكروا هذا القول لأولاهم ، لأنهم ما خاطبوا الله ببل خاطبوا الله جات قدرته بهذا الكلام .

(قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أى يقول الله تعالى لهم : لكل منهم ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم ، فإن العذاب روحى ونفسى ، والأول أنكى وأشد ألماً ، فالرئيس العزيز في قومه إذا دخل السجن مع السفلة وأوشاب الناس لا يكون ألمه كآلمهم ، وإن كان يشركهم فيما يأكلون ويشربون وفي جميع ما يعملون ، إذ يشعر بعذاب النفس وقهر الذل مما لا يشعر به الآخرون ، وإن كانوا يظنون أن عقوبتهما واحدة في ألمها كما هي في صورتها .

ونحو الآية قوله في الآية الأخرى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

(وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) أى إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا مع أن الذنب واحد وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضى له ، فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه ، وقد جاء في سورة الصافات : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَلَى لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلَى كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . سَخَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ . فَأِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِلْيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

المراد بالآيات هنا : الآيات الدالة على أصول الدين وأحكام الشرع كالأدلة على وجود الله ووحدته ، والأدلة على النبوة والبعث يوم القيامة ، والجل هو البعير البازل أى الذى طلع نابه ، وسم الخيلاط : ثقب الإبرة ، وأصل الإجمام : قطع الثمرة من الشجرة ، ثم استعمل في كل إفساد كإفساد الفطرة بالكفر وما يترتب على ذلك من الخرافات والمعاصي ، والمهاد : الفراش ، والغواش : واحدة غاشية ، وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه ويستتره كاللحاف ونحوه .

المعنى الجملى

هذا من تمة ما سلف من وعيد الكفار وجزاء المكذبين بالقرآن المستكبرين عن الإيمان ، بين به أنهم خالدون فى النار ، وأنهم يلاقون فيها من الشدائد والأهوال ما لا يدرك العقل حقيقة كنهه ، وأن هذا كفاء ظلمهم لأنفسهم واستكبارهم عن طاعة ربهم واتباع أوامره .

الإيضاح

(إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) أى إن الذين كذبوا بآياتنا ولم يتبعوا رسلنا وتكبروا عن التصديق بما جاءوا به ، وأنفوا من الانقياد لها - لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ، ولا يصعد لهم فى حياتهم قول ولا عمل ، لأن أعمالهم خبيثة ، وإنما يرفع إلى الله الكلم الطيب والعمل الصالح كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . (ولا يدخلون الجنة حتى يابح الجمل فى سم الخياط) العرب تضرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم : لأفعله حتى يشيب الغراب ، وحتى يبيض القار ، وحتى يدخل الجمل فى سم الخياط ، وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبدا ، والمراد هنا أن هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال .

(وكذلك نجزي المجرمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزي به كل من صار الإجرام وصفا لهم - لامن أجرموا جرما بشورة غضب أو نزوة شهوة ثم لا يلبثون أن يندموا على ما فرط منهم كما قال تعالى فى وصف المؤمنين : « ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » وقال أيضا : « وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) أى لهم من نار جهنم فرش من تحتهم ، ولهم من فوقهم منها لحف تغطيهم ، والمراد أنها محيطه بهم مطبقة عليهم كما قال :

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ » وقال : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » وقال :
« لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وكذلك نجزي الظالمين) أى ومثل هذا الجزاء نجزي به الظالمين لأنفسهم وللناس،
والآيتان تدلان على أن المجرمين والظالمين الراسخين فى صفى الإجرام والظلم هم
الكافرون كما قال : « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » والمؤمنون لا يكونون كذلك بحال.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ
تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) .

شرح المفردات

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان حال السعة والسهولة ، لاحال الضيق والشدة ،
والنزع : قلع الشيء من مكانه ، والغل : الحقد من عداوة أو حسد ، أورثتموها ، أى
صارت إليكم بلا منازع كما يصير الميراث إلى أهله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه وعيد أهل الكفر والمعاصى - أردفه بوعد أهل الطاعات
وقد جرت سنة القرآن بالجمع بينهما ، فيبدأ بأحدهما لمناسبة سياق الكلام قبله
ثم يقفوه بالآخر .

الإيضاح

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات - لانكلف نفسا إلا وسعها - أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من وحى الله وتنزيله وشرائع دينه وعملوا ما أمرهم به وتجنبوا ما نهاهم عنه - هم أهل الجنة دون سواهم ، وهم يخلدون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يسلبون نعيمها .

ومعنى قوله : (لانكلف نفسا إلا وسعها) أننا لا نفرض على المكلف إلا ما يكون فى وسعه وما لا يشق عليه أدأؤه ولا يضيق به ذرعا - وقد جاءت هذه الجملة أثناء الكلام للتنبيه إلى أن العمل الصالح الذى يوصل إلى الجنة سهل غير صعب ، وميسور لا عسرفيه ولا مشقة .

(ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ تجرى من تحتهم الأنهار) أى وأذهبنا ما كان فى قلوب هؤلاء الذين ذكرت صفتهم من حقد وضمن مما يكون عادة فى الدنيا ، فهم لا يدخلون الجنة وفى قلوبهم أدنى عداوة أو بغضاء مما يكون من أسباب تنغيص النعيم فيها ، حال كون الأنهار تجرى من تحتهم فيرونها وهم فى غرفات قصورهم تتدفق فى جناتها وبساتينها ، فيزدادون حبورا وسرورا لا تشوب صفاءهم شائبة كدر .

روى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم فى الدنيا ، فيدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غلّ » .

وروى عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم « ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ إخوانا » .

(وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) أى وقالوا شاكرين لله بألسنتهم معبرين عن غبطتهم وبهجتهم : الحمد لله الذى هدانا .

فى الدنيا للآيمان الصحيح والعمل الصالح الذى كان جزاؤه هذا النعيم ، وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هداانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله ومعاونته لنا عليها ورحمته الخاصة بنا - إلى هدايته التى فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل .

(لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أى إنهم قالوا حين رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا : لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وهذا مصداق ما وعدنا به فى الدنيا على التوحيد وصالح العمل .

(ونودوا أن تلبكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) أى ونادتهم الملائكة قائلة لهم : تلکم هى الجنة التى وعدتم بورايتها جزاء صالح أعمالكم .

أخرج ابن جرير عن السدى قال : ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله فى الجنة والنار منزل مبين ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقليل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله ، ثم يقال : يا أهل الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، فيقتسم أهل الجنة منازلهم .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » .

وفى الآية دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل ، وفى معناها آيات وأحاديث كثيرة .

أما حديث أبى هريرة الذى رواه الشيخان « لن يدخل أحدا عمله الجنة - قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضلته ورحمته » فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيما فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وقضله ، حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل ، فدخل الجنة بالعمل دخول بفضل

الله ورحمته ، ومن ثم قال بعده « فسدوا وقاربوا » أى لا تبالغوا ولا تغلوا فى دينكم ولا تتكفوا من العمل مالا طاقة لكم به .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَيَنْهَيَانَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

الوعد خاص بما كان فى الخير ، أو يشمل الخير والشر وهو الصحيح ، والوعيد خاص بالشر أو السوء ، فقسمة ما كان لأهل النار وعدا إماما من قبيل التهم أو للمشكلة ، والتأذين رفع الصوت بالإعلام بالشىء ، واللعة الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة ، وصدّ عن الشىء : أعرض عنه ، وعوجا أى ذات عوج أى غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد ، والعوج (بفتح العين) مختص بالمرثيات (وبكسر العين) مختص بما ليس بمرئى كالرأى والقول ، والحجاب هو السور الذى بين الجنة والنار كما قال فى سورة الحديد : « فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ يَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ » والأعراف واحدها عرف (بزنة قفل) وهو أعلى الشىء وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك والفرس

والسحاب ، والسماء والسمياء : العلامة ، وصرفت أى حولت ، والتلقاء : جهة اللقاء ،
وهى جهة المقابلة يقال فلان تلقاء فلان إذا كان حذاءه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان -- عقب ذلك ببيان
بعض ما يكون بين الفريقين فريق أهل الجنة وفريق أهل السعير من المناظرة
والحوار بعد استقرار كل منهما فى داره .

وفى هذا دليل على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع إشراف
أهل الجنة وهم فى أعلى عليين على أهل النار وهم فى هاوية الجحيم ، وأن بعضهم
يتخاطب بعضاً بما يزيد أهل الجنة عرفانا بقيمة النعمة ، ويزيد أهل النار حسرة
وشقاء على ما كان من التفريط فى جنب الله .

وهذا التخاطب لا يقتضى قرب المكان على ما هو معمول فى الدنيا ، فعالم
الآخرة عالم تغلب فيه الروحانية على ظلمة الكثافة الجسدية ، فيمكن الإنسان أن
يسمع من بعيد المسافات ، ويرى من أقصى الجهات .

وإن ما جد الآن من المخترعات والآلات التى يتخاطب بها الناس من شاسع
البلاد وتفصل بينهما ألوف الأميال إما بالإشارات الكتابية كالبرق — التلفزيون
اللاسلكى والسلكى — وإما بالكلام اللسانى كالمسرة — التليفون اللاسلكى
والسلكى — ليقرب هذا أتم التقريب ، ويزيدنا فهماً له .

وقد تم لهم الآن أن يروا صورة المتكلم بالتليفون مطبوعة على الآلة التى بها
الكلام وأن ينقلوا الصور من أقصى البلدان إلى أقصاها بهذه الآلة .

الإيضاح

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل
وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟) أى إن أصحاب الجنة حين استقرارهم فى الجنة واستقرار

أهل النار في النار - إذا ما وجهوا أبصارهم إليهم يسألونهم سؤال افتخار على حسن حالهم ، وسؤال تمهيم وتذكير بجناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل ، وسؤال تقرير لهم بصدق ما بأنهم الرسل من وعد ربهم لمن آمن واتفق بجنات النعيم قائلين لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا على السنة رسله من النعيم والكرامة حقاً لا شبهة فيه ، وهانحن أولاء : نستمتع بما لآعين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - فهل وجدتم ما أوعدكم ربكم من الخزي والنكال حقاً ؟

(قالوا نعم) أى قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقاً كما بلغنا على السنة الرسل .
(فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) أى فكان ردف السؤال والجواب وقيام الحجة عليهم - أن أذن مؤذن قائل : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم ، وهذا المؤذن إما مالك خازن النار ، وإما ملك غيره يأمره الله بذلك .

ثم بين المراد من الظالمين فقال :

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً) أى إنهم هم الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وثوابه ، ويمنعون الناس عن سلوكها ، ويبغونها معوجة حتى لا يسلكها أحد .

وبنى الظالمين وطلبهم اعوجاج السبيل يحىء على ضروب شتى :

(١) تدسية أنفسهم بالظلم العظيم وهو الشرك فيشوبوا التوحيد بشوائب الوثنية في العبادة والدعاء ويشركوا مع الله غيره على أنه شفيع عنده ووسيلة إليه ، وهو مانع الله عنه بقوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ » وقوله تعالى « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » .

(٢) ظلمهم لها بالابتداع إذ يبعونها عوجاً بما يزيدون في الدين من البدع والمحدثات التى لم يرد بها كتاب ولا سنة ، ومستندهم في ذلك تأويلات جدلية ومحاولات

للتوفيق بين الدين والفلسفة في الاعتقادات ، أو زيادات في العبادات والشعائر كحفل الموالد وترتيلات الجنائز وأذكار المآذن وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات من الرزق ، أو تحليل ما حرم الله كبناء المساجد على القبور وإيقاد المصابيح والشموع وغيرها عليها .

(٣) ظلمهم لها بالزندقة والنفاق إذ يبعونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

(٤) ظلمهم لها في الأحكام فيبعونها عوجا بترك الحق ، وإقامة ميزان العدل ، والمساواة بين الناس بالتسقط .

(٥) ظلمهم لها بالغلو فيها بجعل يسرها عسرا وسعتها ضيقا بزيادتهم على ما شرعه الله من أحكام العبادات والمحظورات والمباحات ، مما نزل في كتابه وصح من سنة رسوله .

(وهم بالآخرة كافرون) وهم على ضلالهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفرا متأصلا في نفوسهم ، فلا يخافون عقابا على جرمهم ، ولا ذما ولوما على إنكارهم يوم البعث والجزاء .

والخلاصة - إنهم جمعوا بين الصد عن سبيل الله وبعيها عوجا ، وإنكار البعث والجزاء .

(و بينهما حجاب) أي وبين الفريقين فريق أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل كلا منهما من الآخر ويمنعه من الاستطراق إليه .

وهذا الحجاب هو السور الذي سيأتي ذكره في سورة الحديد بقوله : « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » الآية .

(وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) أى وعلى أعلى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار جميعا قبل الدخول فيها ، فيعرفون كلا منهما بسيماهم التى وصفهم الله بها فى نحو قوله : «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ » .

وهؤلاء الرجال هم طائفة من الموحدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس ، فبينما هم كذلك إذ يطلع عليهم ربهم فيقول : قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم ، أخرجهم أبو الشيخ والبيهقى وغيرهما عن حذيفة ، وفى رواية عنه :

يجمع الله الناس ثم يقول لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا ننتظر أمرك فيقال : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتى ورحمتى .

(ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم) أى ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة فائنين لهم : سلام عليكم ، وهذا السلام إما تحية ودعاء وإما إخبار بالسلامة من المكروه والنجاة من العذاب ، هذا إن كان قبل دخول الجنة ، فإن كان بعدها فهو تحية خالصة تدخل فى عموم قوله تعالى «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا نَأْثِمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

(لم يدخلوها وهم يطمعون) أى نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها بعد وهم طامعون فى دخولها ، لما بدا لهم من يسر الحساب ، وقد جاء فى الآثار أن الناس يكونون فى الموقف بين الخوف والرجاء ، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها .

روى أبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لو نادى مناد يا أهل

الموقف ادخلوا النار إلا رجلاً واحداً رجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نادى :
ادخلوا الجنة إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون ذلك الرجل .

(وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)
أى وكلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى
ألا يجعلهم مثلهم ، والمقصود من الآية الإنذار والتخويف ليتبصر المرء في عاقبة أمره ،
فيفوز بالشواب المقيم في جنات النعيم .

وفي التعبير بصرف الأبصار وتحويلها إيماء إلى أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب
الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، ويكرهون رؤية أهل النار ، فإذا
حولت أبصارهم إليهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا
ربنا لا تجعلنا معهم حيث يكونون ، وفي ذلك من استعظام حال الظالمين ، واستقطاع
مآلهم وشناعة أمرهم ما لا يخفى .

وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « يحاسب الله الناس يوم
القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته
أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله « فَمَنْ تَقَتَّ مَوَازِينَهُ »
الآيتين ، ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح . ومن استوت حسناته
وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ، ثم عرض أهل الجنة
وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا : سلام عليكم ، وإذا صرفت أبصارهم
إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من
منازلهم . قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يشون به بين أيديهم
و بآيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا ، فإذا أتوا على الصراط سلب
الله نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة ما اتقى المنافقون « قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا
لَنَّا نُورَنَا » وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم ،
فهناك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون) فكان الطمع دخولا .

قال سعيد : فقال ابن مسعود . على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم قال : هلك من غلب وُحْدَانُهُ أعشاره . اهـ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَائِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

الإيضاح

(ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفونهم بسيئاتهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) هذا نداء آخر من بعض أصحاب الأعراف لبعض المستكبرين الذين كانوا يعتزون في الدنيا بغناهم وقوتهم، ويحتقرون ضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم أو لحرماتهم من عصبية تمنعهم وتذود عنهم ، ويزعمون أن من أغناه الله وجعله قويا في الدنيا فهو الذي يكون له نعيم الآخرة كما قال تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

ومن هؤلاء زعماء قريش وطغاتها الذين قاوموا الإسلام في مكة واضطهدوا أهله كآبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل .

والسيا التي يعرفونهم بها هي سواد الوجوه وزرقة العيون وتشويه الخلق ؛ واختار أبو مسلم أنهم يعرفونهم بسيئاتهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا ، وقيل بسيا

المستكبرين ؛ إذ قد جاء في الأثر ما يدل على أن لمن تغيب عنهم رذيلة خاصة - علامة يدل عليهم يُعرفون بها ؛ فقد روى البخارى « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قتره وغبرة فيعرفه فيشفع له ، فلا تقبل شفاعته ، ثم يسخره الله ذئبا منتنا ليزول عن إبراهيم خزيه » فسخره ذئبا مناسب لحاقته وتتن الشرك .

والمخالصة - إنهم نادوهم قائلين لهم : ما أغنى عنكم جمعكم للمال ولا استكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان ، إذ لم يمنع عنكم العقاب ، ولا أفادكم شيئا من الثواب .

ثم وجه إليهم سؤال توبيخ وتأنيب بحضرة هؤلاء المستضعفين فقيل لهم :
(أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟) أى وقالوا لهم مع الإشارة إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم في الدنيا كصهيب الروم وبلال الحبشى وآل يسر ، والتمهم من خزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم : أهؤلاء الذين حلفتم في الدنيا إن رحمة الله لن تنالهم ؟ إذ لم يعطوا في الدنيا مثل ما أعطيتهم من الأتباع والأشباع وكثرة المال .

(ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أى وقال الله تعالى لأصحاب الأعراف بعد أن يحبسوا على الأعراف ، وينظروا إلى الفريقين ويعرفوهم بسيماهم ويقولوا ما يقولون : ادخلوا الجنة لاخوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم ، ولا أنتم تحزنون مما ينقص عليكم حاضرهم .

وفائدة هذه المقالة بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ، وليعرفوا أن كل أحد يعرف في ذلك اليوم بسيماه التى يوسم بها ، سواء أ كان من أهل الخير أم من أهل الشر ، فيزيد الحسن في إحسانه ويرتدع المسىء عن إساءته ، وليعلموا أن العصاة يؤججهم كل أحد حتى أقل الناس عملا .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا
دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَسَتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ
يَوْمِهِمْ هَذَا ، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ (٥١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مقال أهل الجنة لأهل النار ومقال أصحاب الأعراف لأهل
النار - أردف ذلك بمقال أهل النار لأهل الجنة وطلبهم منهم بعض ما عندهم من نعم
الله عليهم .

الإيضاح

(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله)
إفاضة الماء: صبه، ثم استعملت في الشيء الكثير فيقال: فاض الرزق والخير، وأفاض
عليه النعم، وقالوا أعطاه غيضا من فيض أى قليلا من كثير، وما رزقهم الله يشمل
الطعام والأشربة غير الماء .

والمعنى - أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة ويطلبون منهم أن يفيضوا عليهم
من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام .

وعن ابن عباس ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى فإنى قد احترقت
فأفرض على من الماء ، فيقال : أجبه فيقول : إن الله حرهما على الكافرين .

وعن أبى الدرداء إن الله يرسل على أهل النار الجوع حتى يزداد عذابهم
فيستغيثون فيغاثون بالضريع (نبات رطبه يسمى شبرقا ، ويابس يسمى ضريعا
لا تقربه دابة لثنين ريحه) لايسمن ولا يغنى من جوع ، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام

ذى غصة ، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الخمر والصدید بكلاليب الحديد فيقطع ما فى بطونهم ويستغيثون إلى أهل الجنة ، فيقول أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين .

وهذا طلب منهم مع علمهم باليأس من إجابته ، إذ هم يعرفون دوام عقابهم وأنه لا يفتقر عنهم أبداً ، ولكن اليأس من الشيء قد يطلبه كما قالوا فى أمثالهم (الفریق يتعلق بالزبد) .

(قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لعباً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) التحريم المنع وهو إما تحريم تكليف كتحریم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وإما تحريم قهر كتحریم الجنة وما فيها على الكافرين فى مثل هذه الآية .

والمعنى — إن أهل الجنة قالوا جواباً عن هذا الاستجداء : إن الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين ، كما حرم عليهم دخولها ، فلا سبيل لإفاضة شيء منها عليهم وهم فى النار ، إذ ليس لهم إلا ماؤها الخمر ، وطعامها من الضريع والزقوم .

وقد وصف أهل الجنة الكافرين بأنهم هم الذين كانوا السبب فى هذا المنع والحرمان ، إذ جعلوا دينهم أعمالاً لا تتركى الأنفس ولا تجمعها أهلاً للتشريف والكرامة ، بل هى إما لهو يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة ، وإما لعب لا يقصد منه فائدة صحيحة فهو كالأعمال الأطفال ، وقد غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذاتها من الحرام والحلال ، أما أهل الجنة فقد سعوا لها سعيها ، وعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ومن ثم لم يكن من قصدهم من التمتع بنعم الله إلا الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق والعدل ، والاستعداد لحياة أبدية لا نهاية لها .

والخلاصة — إن الدنيا شغلهم بزخارفها العاجلة وشهواتها الباطلة ، فغرتهم وضرتهم ، وهى من شأنها أن تغر وتضر وتُمِر .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فالיום ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا) أى فالיום نعاملهم معاملة الشيء

المنسى الذى لا يبحث عنه أحد ، كما جعلوا هذا اليوم منسيا ، والمراد من النسيان عدم إجابة دعائهم وتركهم فى النار .

(وما كانوا بآياتنا يجدون) أى وكما كانوا منكبين أن الآيات من عند الله إنكارا مستمرا ، ورفضوا ما جاءت به رسله ظلما وعلوا .

والخلاصة — فالיום نتركهم فى العذاب كما تركوا العمل فى الدنيا لقاء الله يوم القيامة ، وكما كانوا بآيات الله وحججه التى احتج بها عليهم الأنبياء والرسل يحدون ولا يصدقون بشئ منها .

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّناهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) .

تفسير المفردات

الكتاب هو القرآن الكريم ، والتفصيل جعل المسائل المراد بيانها مفصلا بعضها من بعض بما يزيل اشتباهاها ، وينظرون أى ينتظرون ، وتأويله أى عاقبته ، والحق هو الأمر الثابت ، والخسران : العبن ، وصل عنهم ، أى غاب عنهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف وذكر الحوار الذى كان بين هذه الفرق الثلاثة على وجه يحمل الناظر فيها على الحذر والاحتراس والتأمل

في العواقب لعله يرعوى عن غيه ويبتدى إلى سبيل رشده ، عقب ذلك بذكر حال الكتاب الكريم وعظيم فضله وجليل منفعته ، وأنه حجة الله على البشر كافة ، وأنه أزاح به علل الكفار وأبطل معاذيرهم ، ثم بذكر حال المكذبين وما يكون منهم يوم القيامة من الندم والحسرة وتمنى العودة إلى الدنيا لإصلاح أعمالهم .

الإيضاح

(واقعد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة نقوم يؤمنون) أى ولقد جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج إليه المكفون من العلم والعمل ، تركية لنفوسهم وتطهيراً لقلوبهم ، وجعلنا سبب سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيماناً يبعثه على العمل بما أمر به ، والانتفاء عما نهى عنه .

انظر إليه تجده قد أوضح أصول الدين العامة بما لا يطلب معه زيادة لمستزبد ، فنعى على المقلدين الأخذ بآراء من تقدمهم من آبائهم ورؤسائهم دون بحث ولا تمحيص في مثل قوله « إِنَّا وَجَدْنَاهُ آيَاتًا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » . وكرر القول ببطلان التقليد وضلال المقلدين ، وحث على النظر والاستدلال ولا اعتماد على البرهان في مثل قوله « قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وبهذا كان الإسلام دين العقل والفطرة وينبوع الهدى والحكمة والرحمة .

وحين وجد الناس افتنوا في الشرك ، وفرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية . فظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الكون — كاف في الإيمان ولا يضر التوجه إلى غيره من انقرب بين بالدعاء وطلب ما يعجز المرء عن نياله من طريق الأسباب ، ظنا منهم أن التوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه — أبطل هذه الشبهات . وأزال

هذه التعلات و بسط ذلك كل البسط . وأطنب فيه أيما إطناب . إلى نحو ذلك من مسائل تبصر المرء في دينه ودنياه . وتعرفه مبدأه ومنتهاه .

(هن ينظرون إلا تأويله) أى هل ينتظرون إلا عاقبة ما وعدوا به على السنة الرسل من الثواب والعقاب ، أى ليس أمامهم شيء ينتظرونه فى أمره إلا وقوع تأويله وهو وقوع ما أخبر به من أمر الغيب الذى يقع فى المستقبل فى الدنيا ثم فى الآخرة مما وعد به المؤمنين من نصر وثواب ، والكافرين من خذلان وعقاب .

روى عن الربيع بن أنس أنه قال : لا يزال يقع من تأويله أمر حتى يتم تأويله يوم القيامة حين يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ .

(يوم يأتى تأويله) يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق (أى يأتى تأويله ونهايته يوم القيامة وتزول كل شبهة ، فيقول الذين نسوه من قبل أى تركوه وجعلوه كالشيء المنسى وأعرضوا عنه فلم يهتموا به : قد جاءت رسل ربنا بالحق أى قد تبين أنهم قد جاءوا بما هو متحقق ثابت ، فإيماننا فيه وأعرضنا عنه حتى حق علينا الجزاء .

ثم ذكر حالهم فى ذلك اليوم وينبئهم على النجاة فيتمنون إما شفاعاة الشافعين أو رجوعهم إلى الدنيا ليصلحوا أعمالهم .

(فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) أى إنهم يتمنون الخلاص بكل وسيلة ممكنة ، إما بشفاعة الشفعاء وإما بالرجوع إلى الدنيا ليعملوا فيها غير ما كانوا يعملون فى حياتهم الأولى فيكونوا أهلاً لمرضاة ربهم . وإنما تمنوا الشفعاء وتساءلوا عنهم ، من حيث كان من أسس الشرك أن النجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء ، وعند ما يستبين لهم الحق الذى جاءت به الرسل وهوان النجاة إنما تكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح يتمنون لو يردون إلى الدنيا ليعملوا بما أمرهم به الرسل .

(قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى هم قد غبنوا أنفسهم حظوظها وباعوا نعيم الآخرة الدائم بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ، ويومئذ يغيب

عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء ومقالاتهم التي كانوا يقولونها كقولهم في معبوداتهم (هُوَ لَا شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) .

وخلاصة ذلك — إنهم قد خسروا أنفسهم بتدليسها بالشرك والمعاصي وعدم تركيتها بالفضائل والأعمال الصالحة ، فخسروا حظوظهم فيها .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) .

شرح المفردات

الرب: هو السيد والمالك والمدبر والمربي ، والإله: هو المعبود الذي يدعى لكشف الضر أو جلب النفع و يقترب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه ، والله: اسم الخالق الخلق أجمعين ، ولا يثبت الموحدون ربا سواه ، وأكثر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة ، وكان مشركو العرب لا يثبتون ربا سواه ، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه ، والسماوات والأرض : يراد بهما العالم العلوي والعالم السفلي ، واليوم: الزمن الذي يمتاز عن غيره بما يحدث فيه كتمييز اليوم المعروف بما يحده من النور والظلام ، وامتياز أيام العرب بما كان يقع فيها من الحرب والخصام ، وليست هذه الأيام الستة من أيام الأرض وهي التي مجموع ليلها ونهارها أربع وعشرون ساعة ، فإن هذه إنما وجدت بعد خلق هذه الأرض ، فكيف يعدّ خلقها بأيام منها ، ولأن الله تعالى يقول « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » ويقول في وصف يوم القيامة « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » والعرش لغة : كل

شئ له سقف ، ويطبق على هودج المرأة يشبه عريش الكرم ، وعلى سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير ، والاستواء لغة: استقامة الشئ واعتداله ، واستوى الملك على عرشه أى ملك ، وثل عرشه أى هلك ، وغشى الشئ الشئ : ستره وغطاه ، وأغشاه إياه : جعله يغشاه أى يغطيه ويستتره ، ومنه إغشاء الليل النهار ، وحشنا أى مسرعا ، من قولهم فرس حثيث السير أى سريعه ، بأمره أى بتدبيره وتصرفه ، مسخرات أى مذلللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته ؛ والخلق : التقدير والمراد هنا الإيجاد بقدر ؛ تبارك الله : تعاضمت بركاته ؛ والبركة : الخير الكثير الثابت .

المعنى الجملى

علمت مما سلف من قبل أن الأسس التى عنى القرآن الكريم بشأنها هى التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر ، وإثبات المعاد موقوف على إثبات الوجدانية لله والعلم الشامل والقدرة التامة .

ولما بسط القول فيما سلف فى أمر المعاد وبين فئات الناس فى ذلك اليوم وما يدور من حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة — قفى على ذلك بذكر الخلق والتكوين وبيان مقدوراته تعالى وعظيم مصنوعاته لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لا معبود سواه .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) يخاطب سبحانه الناس كافة بأن ربكم واحد ؛ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ودبر أمورها فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، إذ لا إله لكم غيره .

وقد جاء فى معنى الآية قوله فى سورة حم السجدة : « قُلْ أَنتَ كُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ

فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكْتَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ
لَيْسَانَيْنِ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ انثِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .
وقوله في سورة الأنبياء . « أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

وبالتأمل في هذه الآيات نستخلص منها الأمور الآتية :

(١) إن المادة التي خدقت منها السموات والأرض كانت دخاناً أى مثل الدخان .

(٢) إن هذه المادة الدخانية كانت واحدة ثم فتق الله رتقها أى انشدها بأن

فصل بعضها من بعض ، فخلق منها هذه الأرض والسموات السبع .

(٣) إن خلق الأرض كان في يومين ، وأن تكون اليابسة والجبال الرواسي فيها

وأنواع النبات والحيوان كان في يومين آخرين تنمة أيام أربع .

(٤) إن جميع الأحياء النباتية والحيوانية خلقت من الماء .

(٥) إن اليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الزمن الذي كانت فيه كالدخان

حين فتقت من رتق المادة العامة التي خلق منها كل شيء سواء أكان

ذلك بواسطة أم بدونها .

(٦) إن اليوم الثاني هو الزمن الذي كانت فيه مائية بعد أن كانت بخارية

أو دخانية .

(٧) إن اليوم الثالث هو الزمن الذي تكونت فيه اليابسة ونشأت منها الرواسي

فتماسكت بها .

(٨) إن اليوم الرابع هو الزمن الذي ظهرت فيه أجناس الأحياء من الماء وهي

النبات والحيوان .

(٩) إن السماء - العالم العلوى بالنسبة إلى أهل الأرض - قد سويت أجرامها من مادتها الدخانية في يومين آخرين أى زمينين شبهين بالزمين اللذين خلق فيهما جرم الأرض .

وما استنبط من هذه الآيات يوافق ما أقره علماء الفلك في العصر الحديث، فقد قالوا: إن المادة التي خلقت منها الأجرام السماوية وخلقت منها الأرض كانت سديما، وكانت واحدة رتقا ثم انفصل بعضها من بعض، وكانت مؤلفة من أجزاء دقيقة متحركة تجمع بعضها إلى بعض بمقتضى قانون الجاذبية فتكون منها كرة عظيمة تدور على محورها واشتعلت من شدة الحركة فكانت ضياء ونورا تصحبه حرارة شديدة، وهذه الكرة العظيمة في عالمنا هي التي نسميها بالشمس والكواكب الدارى التابعة لها فيما نرى ونشاهد ومنها أرضنا . انفتقت من رتقها وانفصلت من جرمها وكانت مشتعلة مثما وتدور على محاورها .

ثم إن الأرض تحولت من طور الغازية المشتعلة إلى طور المائية بنظام مقدر في أزمنة طويلة، إذ كان الأوكسجين والهيدروجين وهما العنصران اللذان يتكون منهما الماء يرتفعان في الجو لختبهما فيبردان فيكونان بخارا فماء وما زال أمرها كذلك حتى غاب عنها طور المائية .

ثم تكونت اليابسة في هذا الماء بسبب حركة أجزاء المادة وتجمع بعضها مع بعض بنسب ومقادير مختلفة، ثم تولدت فيها المعادن على أنواع شتى، وما زالت تبرد قشرتها الظاهرة وتجب شيئا فشيئا حتى صلحت لتولد النبات والحيوان فوجدت فيها الأحياء النباتية ثم الحيوانية .

ولاشك أن هذه الأقوال إن صحت كانت بياننا لما أجمل في الكتاب الكريم وإن لم تصح فالقرآن لا يناقض شيئا منها، ولكنها أقرب النظريات إلى سنن الكون وصفة عناصره البسيطة وحركتها، وتعتبر تفصيلا لخلق العالم أطوارا بسنن ثابتة وتقدير منظم .

وقد أرشد الكتاب الكريم إلى مثل هذه الحقائق في نحو قوله : « إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقوله حكاية عن رسوله نوح صلى الله عليه وسلم مخاطبا قومه : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا . وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ » .

فهذه الحقائق العلمية التي بينها القرآن ولم يكن أحد من المخاطبين في عصر التنزيل يعرفها - من أكبر الأدلة على إعجازه وأنه من كلام العليم الخبير بكل شيء لامن كلام البشر .

وهذا النظام والتدريج في الخلق من الدلائل على الإرادة والاختيار والحكمة ووحدانية الخالق ، فإن ما لانظام فيه قد يظن أن وجوده أمر افتق أو من فعل الكثير لامن فعل الواحد ، فإنك ترى الفرق واضحا بين كومة من الحصى تراها في الصحراء وبين حصن شيد فيه جميع العُدد والآلات المعدة للقتال .

وما ورد في الأخبار مما يدل على أن هذه الأيام الستة هي من أيام ديننا كحديث أحمد ومسلم عن أبي هريرة قل : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : « خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الرواسي يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فهو من الإسرائيليات التي لم يصح فيها حديث مرفوع - إلى أن هذا الحديث مردود من جهة متنه لمخالفته لنص كتاب الله ، ومن جهة سنده لأنه مروى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وقد اختلط عقله في آخر عمره ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد الحديث في تفسيره : وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قال : « في ستة أيام » ولهذا تكلم البخاري

وغير واحد من الحفاظ فيه وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار وليس مرفوعا اهـ .

(ثم استوى على العرش) أى إنه تعالى قد استوى على عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبر أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره الذى اقتضته حكمته .

وفى معنى الآية قوله فى سورة يونس : « إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي حَقَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

واستواؤه تعالى على العرش : هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقة ذلك التدبير ولا معرفة صفته ولا كيف يكون ، فالصحابة رضوان الله عليهم والأئمة من بعدهم لم يشبهه أحد منهم فيه ، وقد أئرن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه سئل عن قوله : « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير محبول وانكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

وقال الحافظ ابن كثير : مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى واشورى والليث ابن سعد والشافعى وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تشبيه . وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله - تشبيه ، فمن أثبت ماوردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ .

(يغشى الليل النهار يطأه حثيثا) أى إنه تعالى جعل الليل وهو الظلمة يغشى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض أى يتبعه ويغلب على المكان الذى كان فيه

ويستره حال كون الطلب حثيثاً أى بسرعة ، والمراد أنه يعقبه سريعاً كاطالب له لا يفصل بينهما شئ .

ويظهر ذلك الطلب السريع أنهم الظهور بما أثبتته العلم حديثاً من كروية الأرض وأنها تدور على محورها حول الشمس ، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً دائماً ، وقد قال بهذا القول كثير من علماء الإسلام كالغزالي والرازي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

وهذه الجملة كالل دليل على ما قبلها ، فإنه بعد أن أخبر عباده باستوائه على العرش وتدييره لجميع الخلوقات - أرأى ذلك عياناً فيما يشاهدونه منها ليضم العيان إلى الخبر وتزول الشبهة - إلى ما في تعاقب الليل والنهار من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة ، إذ بتعاقبهما يتم أمر الحياة وتكمل المنفعة والمصلحة .

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى وخلق هذه الأشياء حال كونها مذلات خاضعات تنصرفه منقادات لحكمه .

(ألا له الخلق والأمر) أى ألا إن لله الخلق ، فهو الخالق المالك لنوات الخلوقات وله فيها الأمر أى التصرف والتدبير ، إذ هو المالك لها لا شريك له في ملكه .

ومن هذا التدبير ما سخر له الملائكة من نظام العالم وتنفيذ سننه في خلقه ، كما جاء في قوله : « فَأَمَّا بَرَاتٍ أَمْرًا » ومن ذلك الوحي الذى ينزل به الملائكة على الرسل كما جاء في قوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » .

وفي معنى الآية قوله : « إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » وقوله : « فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » وقوله : « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » وجاءت هذه الجملة تأكيداً لما قبلها لبيان أنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى دبرها وصرّفهما على حسب إرادته .

(تبارك الله رب العالمين) أى تعالى الله بوحدايته وألوهيته ، وتعظم بالتفرد برؤسيته ، وأن كل ما فى هذا العالم من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة فهو منه ، فيجب على عباده أن يشكروه عبيها ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه وليس له من الخلق ولا من الأمر شئ .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) .

شرح المفردات

التضرع : التذلل ، وهو إظهار ذل النفس من قولهم ضرع فلان لفلان ونضرع له : إذا أظهر الذل فى معرض السؤال ، والخفية : ضد العلانية من أخفيت الشئ أى سترته ، والاعتداء : تجاوز الحدود ، ومحبة الله للعمل : ثوابه عليه ، وللعامل رضاه عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على توحيد الربوبية - قفى على ذلك بالأمر بتوحيد الإلهية بإفراده تعالى بالعبادة ، وروحها ومخها الدعاء والتضرع له .

الإيضاح

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) أى ادعوا ربكم متولى أموركم حال كونكم متضرعين مبتهلين إليه مخفين دعاءكم .
وفى هذا إيماء إلى أن الدعاء فى الخفية إن لم يكن واجبا فهو مندوب على الأقل ، ويدل على ذلك وجوه :

(١) إنه تعالى أثنى على زكريا فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » أى إنه أخفاه عن العبد وأخلصه لله وانقطع به إليه .

(٢) روى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنْ كُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنْ كُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ » رواه مسلم .

(٣) روى أنه عيبه السلام قال : « دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكتفى » .

(٤) روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ، ولقد كان المسامون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اهـ .

(٥) إن النفس شديدة الرغبة فى الرياء والسمعة ، فإذا رفع صوته بالدعاء امتزج الرياء به ، فلا يبقى فيه فائدة البتة ، ومن ثم كان الأولى الإخفاء لبقى مصونا عن الرياء .

وفصل بعض العلماء فقال : إن التضرع بالجهر المعتدل يحسن فى حال الخلوة والأمن من رؤية الناس للداعى ومن سماعهم لصوته ، فلا جهره يؤذيهم ، ولا الفكر فيهم يشغله عن التوجه إلى الرب وحده ، أو يفسد عليه دعاءه بحب الرياء والسمعة ، ويحسن الإسرار فى حال اجتماع الناس فى المساجد والمشاعر وغيرها إلا ما ورد فيه رفع الصوت من الجميع كالتلبية فى الحج وتكبير العيد .

وإذ كان الليل سترًا ولباسًا شرع فيه الجهر في قراءة الصلاة - إلى أنه يطرد الوسواس ، ويقاوم فتور الناس ، ويعين على تدبر القرآن ، وبكاء الخشوع للرحمن لدى المهجدين في خلواتهم .

(إنه لا يجب المعتدين) أى المتجاوزين ما أمروا به ، ونحو الآية قوله : « تَبْتَغُوا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .
وللاعتداء في الدعاء مظاهر شتى .

(١) اعتداء خاص بالألفاظ كدبلغة في رفع الصوت والتكلف في صيغ الدعاء .
(٢) اعتداء خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصي ومقاصدها كضرر العباد وطلب إبطال سنن الله في الخلق ، أو تبديلها كطلب الضرر على الأعداء مع ترك وسائله كأنواع السلاح والعتد ، وطلب الغنى بلا كسب ، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله يقول « فَتَنَّا تَبَّذَ لِسْنُكَ اللَّهُ تَبَدَّلَ . وَإِنْ تَجِدَ لِسُنُّكَ اللَّهَ تَحْوِيلًا » .

(٣) اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله ليشفع له عنده ، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » ومن طُب ذلك من غير الله فقد اتخذَه إلها ، لأن الإله هو المعبود كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء هو العبادة » وروى الترمذى عن أنس مرفوعا « الدعاء من العبادة » وروى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة . فالوا وما الوسيلة ؟ قال : اقرب من الله عز وجل ، ثم قرأ « يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ » وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه الله على لسان رسوله دون غيره .

وقد جاءت آيات كثيرة فى الإنكار على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة له وشركا بالله ، ولكن مدعى العلم الذين يتقوون على الله : يقولون لا بأس بدعاء .

الأولياء والصالحين عند قبورهم والتضرع والخشوع لهم ، ويكون توسلا بهم إلى الله ليقرّبهم منه بشفاعتهم ، لا عبادة لهم .

وقد عمت أن التوسل إنما هو التقرب إلى الله بما يرضيه وبما شرعه من عبادته دون غيرها ، وآيات الكتاب الكريم صريحة في ذلك .

نعم إن طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الأحياء لامن الأموات ، ويسمى ذلك توسلا لأنه قد شرعه الله كما توسل عمر والصحابه بالعباس بصلاة الاستسقاء وما بعدها من الدعاء .

وما ذم الله المشركين إلا لأنهم أشركوا مع الله غيره في الدعاء ، وهم كانوا يؤمنون بالله و بعضهم كان يؤمن باليوم الآخر ، ولكن طراً عليهم الشرك الذي أحبط أعمالهم ، وهكذا يحبط إيمان من أشرك من المسمين بدعاء غير الله .

(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) أى ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاح الله لها بما خلق فيها من المنافع وما هدى الناس إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم وامتنانه بذلك في مثل قوله « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

وهذا الإفساد شامل لإفساد النفوس بالقتل وقطع الأعضاء ، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ، وإفساد الأديان بالكفر والمعاصي ، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزنا ، وإفساد العقول بشرب المسكر ونحوه .

والخلاصة — إن الأفساد شامل لإفساد العقول والعقائد والآداب الشخصية والاجتماعية والمعاش والمرفق من زراعة وصناعة وتجارة ووسائل تعاون بين الناس . وإصلاح الله تعالى لحال البشر كان بهداية الدين وإرسال الرسل . وتم ذلك ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان رحمة للعالمين ، فيه أصلحت عقائد البشر ، وهذبت أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها من مصالح الروح والجسد ، وما شرع لهم

من التعاون والتراحم . وبم حفظهم من العدل والمساواة . وبما شرع لهم من الشورى المتقيدة بقاعدة درء المفاسد وحفظ المصالح . وبذا امتاز دينهم عن بقية الأديان .

انظر إلى الأمم ذوات الحضارة والمدنية ترها أصبحت كل شىء من معدن ونبات وحيوان . ولكنها عجزت عن إصلاح نفس الإنسان ، ومن ثم تحول كل ما هدوا إليه من وسائل العمران إلى إفساد نوع الإنسان ، وتعاادت الشعوب وتنازعت على ذلك والسلطان ، وأباححت الكفر والعصيان وبذل الثروة في سبيل التنكيل بالخصوم والجنسية على الأعداء ولو بالجنسية على أنفسهم . وما الحروب القائمة في مشارق الأرض ومغاربها بين الدول الكبرى والتي أكلت الحرث والنسل وأزهقت أرواح الملايين من الناس بين حين وآخر إلا شاهد صدق على ما نقول .

وبعد أن بين في الآية الأولى شرط الدعاء أعاد الأمر به إيذاناً بأن من لا يعرف أنه محتاج إلى رحمة ربه مفتقر إليها ، ولا يدعوا ربه تضرعاً وخفية ولا يخاف من عقابه ولا يطمع في غفرانه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح فقال :

(وادعوه خوفاً وطمعاً) الخوف ترفع مكروه يحصل بعدد ، والطمع توقع محبوب يحصل كذلك أى ادعوه خائفين من عقابه على مخالفتكم لشرعه المصالح لأنفسكم وأجسامكم ، طامعين في رحمته وإحسانه في دنياكم وآخرتكم .

ودعاء المولى حين الشعور بالعجز والافتقر إليه مما يتقوى الأمل بالإجابة ويحول بينها وبين اليأس إذا تقطعت الأسباب وجهلت وسائل النجاح .

والدعاء مخ العبادة ولها ، وإجابته مرجوة متى استكملت شرائطها وآدابها ، فإن لم تكن بإعطاء الداعى ما طلبه فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له منه .

ثم بين فائدة الدعاء وعلل سبب طلبه فقال :

(إن رحمة الله قريب من المحسنين) أى إن رحمته تعالى قريبة من المحسنين أعمالهم ، لأن الجزاء من جنس العمل كما قال «هَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» .

فمن أحسن في عبادته نال حسن الثواب ، ومن أحسن في الدعاء أعطى خيرا مما طلبه ، أو مثل ما طلبه .

وقد طلب الله الإحسان في كل شيء يهدي إليه دين الفطرة ، وحرم الإساءة في كل شيء وجعل جزاءها من جنسها كما قال « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » رواه مسلم . ومن هذا تعلم أنه طلب الإحسان إلى الحيوان والرفق به حين ذبحه حتى لا يتعذب ، كما حرم أكل الموقوذة وهي التي تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت .

وطلب الإحسان في قتال الأعداء ، لأنه في حكم الضرورات التي تقدر بقدرها ويتقى ما يمكن الاستغناء عنه كما قال « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْمَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَدًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

فقد طلب إلينا في هذه الآية أن نضرب رقاب الأعداء حين قتالهم . لأنه أسرع إلى قتلهم وأبعد عن تعذيبهم بمثل ضرب الرءوس وتقطيع الأعضاء ، حتى إذا ظهر لنا عليهم الغلب بالإثخان فيهم أمرنا بترك القتل وأن نعهد إلى الأسر وبعد ذلك إما أن نمن على الأسرى بالعقق ، أو نفاديهم بمن أسر منا .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى نَعْلَمُكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ

الطَّيِّبُ يُخْرَجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ،
كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) .

شرح المفردات

الريح: الهواء المتحرك . والرياح عند العرب أربع على حسب مهابها من الجهات الأربع: الشمال والجنوب، وسميا كذلك باسم الجهة التي يهبان منها والصبأ أو القبول، وهي الشرقية وقد ينسبونها إلى نجد كما ينسبون الجنوب إلى اليمن والشمال إلى الشام والدبور، وهي الغربية . والريح التي تنحرف عن الجهات الأصلية فتكون بين اثنتين منها تسمى النكباء .

قال الراغب: كل موضع ذكر الله فيه إرسال الريح بلفظ الواحد كان للعذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع كان للرحمة . وفي الخبر « إنه صلى الله عليه وسلم كان يجشو على ركبتيه حين هبوب الرياح ويقول: اللهم اجعلها لنا رياحا ولا تجعلها ريحا ، اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك . وعافنا قبل ذلك » وبشرا: مخفف بشراً واحداً بشير: كغدر جمع غدير . والرحمة: هنا المطر، وأقلت: رفعت: قال في المصباح: كل شيء حملته فقد أقلتته، والسحاب: الغيم واحده سحابة، والثقال منه: المشبعة ببخار الماء، وسقناه: سيرناه، والبلد والبلدة: الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء، وبلد ميت: أرض لا نبات فيها ولا مرعى، والثمرات واحدها ثمرة، والثمرة واحدة الثمر: وهو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل أولاً، فيقال ثمر الأراك وثمر النخل والعنب، والنكد كل شيء خرج إلى طالبه بتعسر يقال رجل نكد (بفتح الكاف وكسرهما) ونافة نكداء: خفيفة الدر صعبة الحلب، والتصريف: تبديل الشيء من حال إلى حال، ومنه تصريف الرياح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه تفرد به الملك والملكوت وتصرفه فى العالم العلوى والسفلى وتديره الأمر وحده ، وطلب إلينا أن ندعوه متضرعين خفية وجهرا ، ونهانا عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، وأبان لنا أن رحمته قريب من الحسنيين ... قفى على ذلك بذكر بعض ضروب من رحمته ، إذ أرسل إلينا الرياح وما فيها من منافع للناس ، فيها ينزل المطر الذى هو مصدر الرزق وسبب حياة كل حى فى هذه الأرض ، وفى ذلك عظيم الدلالة على قدرته تعالى على البعث والنشور .

الإيضاح

(وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) أى إن ربكم المدبر لأموال الخلق ، هو الذى يرسل الرياح بين يدي رحمته : أى بين الأمطار وأمامها حال كونها مبشرات بها ، فينشئ بها سحابا ثقالا لكثرة ما فيها من الماء . حتى إذا أقلتها ورفعتها إلى الهواء سافها لإحياء بلد ميت قد عفت مزارعة ، ودرست مشاربه ، وأجذب أهله .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ » .

(فأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ) أى فَأَنْزَلْنَا بِالسَّحَابِ الْمَاءَ ، إذ قد ثبت أنه حينما يسخن الهواء القريب من سطوح البحار وغيرها بتأثير الحرارة ، يرتفع فى الجو ويرد لوصوله إلى منطقة باردة ، أو لامتزاجه بتيار من الهواء البارد ، فإذا برد تكاثف منه بخار الماء وتكوّن السحاب . فالسحاب ناشئ من تكاثف بخار الماء من الهواء فى الطبقات العالية من الجو ، وهو لا يكون ثابتا فى مكان . بل يسير فى اتجاه أفقى مدفوعا بقوة الرياح ،

ويتراوح بعده عن الأرض بين ميل وعشرة أميال ، ويكون معتماً مُشْبَعاً بالماء إذا كان قريباً من سطح الأرض ، وهو الذى ينشأ عنه المطر لتجمع قطيرات الماء التى فيه بعضها مع بعض بتأثير البرودة ، فتتكون قطيرات كبيرة تسقط من خلاله نحو الأرض لثقلها على حسب سنة الله فى جاذبية الثقل كما قال تعالى فى سورة الروم : « اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ - المطر - يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » وفى سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقِ - يسوق - سَحَابًا ثُمَّ يُؤَفِّقُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا - مجتمعا - فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » والمراد بالسحاب السحاب ، إذ هى لغة : كل ماعلا الإنسان وأظله .

وقد أثبت العلم ودلت المشاهدة أن سكان الجبال الشامخة ينعفون فى العلو حذاء السحاب الممطر أو يتجاوزونه إلى ما فوقه فيكون دونهم كما شاهد ذلك بعض النازلين فى بعض الفنادق فى جنيف بسويسرا .

(فأخرجنا به من كل الثمرات) أى فأخرجنا بالماء أنواع الثمار على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها ، فتخرج كل أرض أنواعاً مختلفة منها تدل على قدرة الله وعلمه ورحمته وفضله كما قال : « وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وبعد أن ذكرهم بهذه الآيات قفى على ذلك بما يزيل إنكارهم للبعث فقال : (كذلك نخرج الموتى) أى ومثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميئة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم ، إذ القادر على هذا قادر على ذلك .

(لعلكم تذكرون) هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولكم « أَيْنَذَا مِيتًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » وقولكم « أَيْنَذَا مِيتًا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » .

فأمثل هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحى من الميت تزول إذا أتمت ذكرتم خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، فكل منهما خاضع لقدرة الإله تقادر على كل شيء .
والحياة فى عرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذى والنمو فى النبات والحس والحركة فى الحيوان .

وما يقوله علماء الطبيعة الآن من أن الحى لا يولد إلا من حى سواء فى ذلك الحيوان والنبات ، فالنبات الذى يخرج فى الأرض الفراء بعد سقيها بالماء لا بد أن تكون له بذور فيها حياة كامنة لا تظهر إلا بالماء — فمثل هذه الحياة لم يكن معروفا عند واضعى اللغة ، على أنه لا ينفى صحة خروج النبات الحى من الأرض الميتة ، إذ نولا تغذى اليذور والجذور بمواد الأرض الميتة بسبب الماء لما ثبت .

والقرآن الكريم قد حدثنا بأن الأرض تنفى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها فقال « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » فهذه ارجة هى التى سميت فى الآيات الأخرى بالقارعة والصاخة إذ ربما يقرعها كوكب وبصطدم بها فتفتت جبالها وتكون كاهباء المتفرق فى الجو المسمى بالسديم .

إعادة الموتى

جاء فى الكتاب الكريم قوله « كَلَّا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَقٍّ نُعِيدُهُ » وقوله : « كَلَّا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وقوله « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

فأثبت في هؤلاء الآيات الإعادة وشبهها بالبدء ، وهو تشبيه في جملة ذلك لا في تفصيله ، فإنه كما خلق جسد الإنسان الأول خلقا ذاتيا مبتدأ ونفخ فيه الروح - يخلق أجسام أفراد الإنسان خلقا ذاتيا معادا ، ثم ينفخ فيها أرواحها التي كانت بها أناسى في الحياة الدنيا ، فما الأجساد إلا كالسكن للأرواح .

وليس بالبعيد على خالق العالم كله أن يعيد أجساد ألوف الملايين دفعة واحدة ، ولا سيما بعد أن أثبت العلم أنه يمكن تحصيل بعض المواد المؤلفة من عناصر مختلفة ، ثم إعادة تركيبها ، وقد كان لتقدم الإنسان في العصر الحديث ومعرفة الكثير من ظواهر السكون أثر عظيم في تعرفنا لكثير من أخبار عالم الغيب وسهولة إدراك العقول لها ، ومن ثم قال كثير من علماء العصر الحديث : ليس في العالم شيء مستحيل .

ولا يراد بحشر الأجساد حشرها بأعيانها لأجل وقوع الجزاء عليها ، ألا ترى أن العلماء يقولون : إن الأجساد تتجدد في قليل من السنين . ومع ذلك لا يعتقد أحد من القضاة أن العقاب يسقط عن الجاني بالتحلل أجزاء بدنه التي زاول بها الجنابة وتبدل غيرها بها ، فحقيقة الإنسان لا تتغير بهذا التبدل ، إذ ليس هذا إلا كتبدل الثياب ونحوها ، إذ المستحق للشواب والعقاب هو الروح ، لأن مبنى الطاعة والعصيان الإدراكات والإرادات والأفعال والحركات .

والخلاصة — إن الإنسان الحقيقي هو الذرة التي تحل في القلب وفيها تحل الروح وتكسبها الحياة وتسرى منها إلى الهيكل الجسماني ، فهذا الهيكل هو آلة قضاء أعمال تلك الذرة في هذا الكون ، واكتساب العلوم والمعارف ، وهي مع الروح الحال فيها هما المحاطبان بالتكليف ، وهما المعادان والمنعمان والمعذبان إلى نحو ذلك .

وبعد أن ضرب الله إحياء البلاد بالمطر مثلا لبعث الموتى - ضرب اختلاف نتائج البلاد مثالا في البشر من اختلاف الاستعداد لكل من الهدى والكفر والرشاد والغى فقال :

(والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) قوله

والذى خبث أى والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نكدًا ، وأصل النكد هو العسر الممتنع من إعطاء الخير بخلا .

والعنى — إن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التى يخرج نباتها بسهولة وينمى بسرعة ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ، ومنها الخبيثة التربة كالحرة — الحجرية — والسبخة التى لا يخرج نباتها على قوته وخبثه إلا بعسر وصعوبة .

قال ابن عباس : هذا مثل ضرب به الله تعالى للمؤمن والكافر أى للبر والفاجر اه أى إنه تعالى شبههما بالأرض الخيرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فالأرض الخيرة يحصل فيها بنزول المطر أنواع الأزهار والثمار ، والأرض السبخة إن نزل عليها المطر لا تنبت من النبات إلا النذر القليل ، فكذلك الروح الطيب النقي من شوائب الجهل ورذائل الأخلاق إذا اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع الطاعات والأخلاق الحميدة ، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل به نور القرآن لا يظهر فيه من المعارف وجميل الأخلاق إلا النذر القليل .

روى أحمد والشيخان والنسائى من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب — التى لا تشرب ولا تنبت — أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنمى هى قيعان — أرض مستوية — لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به « وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم القسم الأول وهو الذى نفع وانتفع بالهادى والمهتدى ، وفسر القسم الثالث وهو الذى لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد ، وسكت عن القسم الثانى وهو الذى نفع غيره بعلمه ولم ينتفع به هو ، لأن له أحوالا كثيرة فمنه المنافقون ومنه المفرطون فى دينهم ، والمشاهدة تدل على أن الطيبى الأخلاق

يفعلون الخير والبر بلا تكلف ، وأن الخبيثين لا يفعلون الخير ولا يؤدون الواجب إلا نكدا بعد إحاف أو إيذاء حين الطلب أو إدلاء إلى الحكم .

(كذلك تصرف الآيات تقوم يشكرون) أى مثل ذلك التصريف البديع بردد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ، وتكررها قوم يشكرون نعمنا باستعمالها فيما تتم حكمتنا ، وبذا يستحقون منا المزيد ويكافئون بالثواب عليها .

وختم هذه الآية بالشكر ، إذ كان موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، والآية التى قبلها بالتذكر لما كان موضوعها الاعتبار والاستدلال .

قصص نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أَتَلْعَمُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

اليوم هنا : يوم القيامة ، والملأ : أشرف القوم لأنهم يملئون العيون بهجة ورواء بتأنيدهم في زيهم وتجميل منظرهم ، والنصح : الإرشاد إلى المصلحة مع خلوص النية

من شوائب المكر . والذكر : الموعظة ، وعلى رجل أى على لسانه ، منكم أى من جنسكم ، والفلت : السفينة ، وعين واحد هم عم : وهو ذو العمى ، أو هو خاص بعمى القلب والبصيرة . والأعمى : أعمى البصر كما قال زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

المعنى الجملى

بعد أن ذكر — عظمت الآلؤد — مبدأ الإنسان ومعادد وأن مرده إلى الله فى يوم تجازى فيه كل نفس بما كسبت — قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء مع أممهم وإعراضهم عن دعوتهم ، ليمين للرسول أن الإعراض عن قبول دعوة الأنبياء ليس يبدع فى قومك ، بل سبق به أقوام كثيرون ، وفى ذلك تسوية له صلى الله عليه وسلم إلى ما فيه من التنبيه إلى أن الله لا يهمل أمر المبطلين ، بل يهملهم ، وتكون العاقبة للمتقين ، ومن العظة والاعتبار بما حل بمن قبلهم من النكال والوبال كما قال « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

الإيضاح

(لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) أقسم ربنا جل ثناؤد للمخاطبين بهذه الآية من أهل مكة ومن جاورهم من العرب بأنه سبحانه أرسل نوحا إلى قومه منذرا لهم بأسه وخوفهم سخطه ، على عبادتهم غيره ، وقد كانوا ينكرون الرسالة والوحى ، إذ ليس عندهم من علوم الرسل والأمم شيء إلا ما يتلقونه من اليهود والنصارى فى بلاد العرب والشام .

ونوح أول رسول أرسله الله إلى قومه المشركين كما هو رأى كثير من المحققين كما ثبت فى حديث الشفاعة وغيره .

(فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أى فدعا من كفر منهم إلى

عبادة الله تعالى وحده ، إذ ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه في عبادتهم بدعاء يطلبون به ما لا يقدرون عليه بكسبهم ، فربهم هو الخالق لكل شيء ويده ملكوت كل شيء ، وهو الإله الحق الذى يجب أن تتوجه إليه القلوب بالدعاء وغيره . ثم ذكر السبب فى الأمر بعبادته وحده ، وترك أدنى شوائب الشرك . مثبتا للبعث والجزاء فقال :

(إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إني أخاف عليكم عذاب يوم شديد هوله وهو يوم البعث والجزاء إذا لم تتنبأوا ما أمرتكم به .

(قال الملائكة من قومه إنا نراك فى ضلال مبين) أى قال له أشراف قومه : إنا نراك فى ضلال بين عن الحق بنهيك لنا عن عبادة آلهتنا وُدّ وسواع ويعوق ونسر وهم شفعاؤنا عند الله ووسيلتنا إليه ، فيبركتهم يتقبل منا صالح أعمالنا ، ويعطينا سؤلنا ، لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى ، ونحن لا نستطيع أن نوجه إليه دعواتنا دون وساطتهم ، لما نجترحه من السيئات التى تبعدنا عن حظيرة ذلك القدس الأعظم .

وخلاصة مقالهم — أنت فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، فجاءتك لا تجد إلى الصواب سبيلا .

(قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى قال نوح مجيبا لهم : يا قوم لم آمركم بما أمرتكم به من توحيد الله وإخلاص الضعة له دون الآلهة والأنداد خروجا منى عن محجة الحق ، وضلالا عن سبيل الرشاد ، ولكنى رسول من رب العالمين إليكم ، أهدىكم باتباعى إلى ما يوصلكم إلى السعادة فى دنياكم وآخرتكم ، وأنقذكم من الهلاك الأبدى بالشرك بالله والمعاصى المندسة للأنفس والمفسدة للأرواح .

ومن رحمة ربكم بكم ألا يدعكم فى عمايتكم وشرككم الذى ابتدعتموه مجيباكم

حتى يبين لكم الحق من الباطل على يد رسول من لدنه يسلك بكم السبيل السوى الموصول إلى النجاة .

(أبلغكم رسالات ربي) أى أرسلنى إليكم لأبلغكم ما ضب إلى تبليغه من التوحيد والإيمان وباليوم الآخر والوحى والرسالة والملائكة والجنة والنار والآداب والمواظ والأحكام العامة من عبادات ومعاملات إلى نحو ذلك .

(وأنصح لكم) بتحذيركم عقاب الله على كفركم به ونكذيبكم لى وردكم نصحى .
روى مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) أى وأنه فى هذا التبليغ وذلك النصح على علم من الله أوحاه إلى لا تعلمون منه شيئاً ، كما أنى أعلم من أمر الله وشئونه ما لا تعلمون فى نظام هذا العالم وما ينتهى إليه . كما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء - فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شركم من إنزال العذاب بكم فى الدنيا إذا جحدتم وعاندتم ، فإنما أنصح لكم عن علم يقينى لا تعلمونه .

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) أى أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ، ليحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد لكم من العذاب على ذلك ولتتقوا بهذا الإنذار ما يسيطر بكم عليكم بالشرك فى عبادته ، والإفساد فى أرضه ، وليعدكم بالتقوى لرحمته التى ترجى لكل من أجاب الدعوة واتقى .

وفى قوله : على رجل منكم ، بيان لشبهتهم على الرسالة وهى أن الرسول بشر مثلمهم ، فكأنهم كانوا يرون أن الاشتراك فى البشرية والصفات العامة يقتضى التساوى فى جميع الخصائص والمزايا ويمنع الانفراد بشيء منها ، والمشاهدة أكبر برهان على بطلان هذه القضية ، فالتفاوت فى الغرائز والصفات الفاضلة والاختلاف فى القوى

العقلية والمعارف والأعمال الكسبية - جد عظيم فى البشر ، وليس فى الأنواع الأخرى ما يشبه الإنسان فى ذلك - إلى أنه لو فرض التساوى بينهم ، فهل هذا يمنع أن يختص الله بمض عبادته بما هو فوق المجهود فى الغرائز والمكتسب بالتعلم ؟ كلا ، إنه تعالى قدير على ذلك ، وقد قضت به مشيئته ، ونفذت به قدرته .

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك) أى فكذب به جمهورهم وأصرّوا على ذلك وخالفوا أمر ربهم ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، فأنجيناه من الغرق والذين سلكهم معه فى الفلك من المؤمنين : « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » وقد جاءت القصة مفصلة فى سورة هود ، قيل كانت عدتهم ثلاث عشرة : نوح وبنود الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم وسنة ممن كانوا آمنوا به .

(وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمن) أى وأغرقنا من كذب بآياتنا بانطوائهم بسبب تكذيبهم ، وما كان ذلك التوكذيب إلا لعى بصائرهم الذى حال بينهم وبين الاعتبار بالآيات وفهمهم للدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته على إرسال الرسل وحكمته فى ذلك ، والتواب والعقاب فى يوم الجزاء ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكرى وما هم بسكرى ولكنهم من شدة العذاب حيارى .

قصص هود عليه السلام

وَإِنِّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ

نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرُهُ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؟ فَاتَّظَرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنَظِّرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

الأخ هنا : الأخ في النسب ، وتقول العرب في أخوة الجنس يا أخا العرب ، والسفاهة : خفة العقل ، والآلاء واحدها أَلَى : وهي النعمة ، والرجس : العذاب ، والغضب : الانتقام ، والمجادلة : المارة والمخاصمة ، والسلطان : الحجة والدليل ، والدابر : الآخر ، ويراد به الاستئصال أي أهلكناهم جميعا .

المعنى الجملي

أخرج ابن إسحق من طريق الكلبي قال : إن عادا كانوا أصحاب أوثان يعبدونها - اتخذوها على مثل ود وسواع ويعوث ونسر ، فأتخذوا صنما يقال له صمود وآخر يقال له الهتار ، فبعث الله إليهم هودا وكان من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان

من أوسطهم نسبا وأصبحهم وجها ، فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » . وكانت منازلهم بالأحقاف - الرمل - فيما بين عُثْمَانَ إلى حضرموت باليمن ، وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله اهـ .

الإيضاح

(وإلى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هودا ، والحكمة في كون رسول القوم منهم أن يُفهمهم ويفهم منهم ، وأن يكونوا أقرب إلى إجابة دعوتهم لمعرفة شئ الله وأخلاقه .

(قال يا قوم اعبدوا الله مالمكم من إله غيره) أى قال هود لهم : يا قوم أفردوا العبادة لله ولا تجعلوا معه إلهاً غيره .

(أفلا تتقون) ربكم وتبتعدون عما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه ؟ وجاء في سورة هود : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

وقد يكون قال لهم هذا وذلك في وقت واحد ، أو يكون قد قال لهم هذا مرة وذلك أخرى .

(قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة) أى قال الملأ الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة هود إليهم : إنا لنراك في ضلال عن الحق والصواب بتركك ديننا وعبادة آلهتنا الذين اتخذت لهم الأمة الصور والتماثيل تخليداً لذكراهم والتقرب بشفاعتهم إلى ربنا وربهم .

ووصف الملأ هنا بالكافرين ملأ قوم نوح ، لأن منهم من كان قد آمن . (وإنا لنظنك من الكاذبين) في قبلك إني رسول من رب العالمين ، وفي قولهم هذا إيماء إلى تكذيبهم كل رسول ، إذ هم قد عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم .

(قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) أى ليس بي أى ضلالة عن الحق والصواب كما تدعون ، ولكنى رسول من رب العالمين أرسلنى إليكم ، لأبلغكم رسالات ربى وأؤديها إليكم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فلا يختار لها إلا من عرفوا برجحان العقل وحصافة الرأى وكمال الصدق .

ثم بين وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيما بلغ فقال :

(أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) أى أبلغكم ما أرسلت به من التكليف ، وإنى ناصحكم فى أبلغكم إياه وأدعوك إليه ، أمين فيما أبلغ عن الله ، فلا أكذب عليه فى وحيه بئى .

وفى إجابة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم بتلك الإجابة الصادرة عن الحكمة والإغضاء عما قالوا من وصفهم بإيهم بالسفاهة والضلالة - أدب حسن وخلق عظيم وتعليم لعباده كيف يقابلون السفهاء ، وكيف يغضون عن قالة سوء التى تصدر عنهم .

(أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟) أى أكذبتكم وعجبت أن أنزل ربكم وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على لسان رجل منكم لينذركم بأسه ويخوفكم عقابه ؟

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة) أى واذكروا فضل الله عليكم ونعمته ، إذ جعلكم ورثة قوم نوح وزادكم بسطة فى خلق أبدانكم (وقد كانوا طوال الأجسام أقياء الأبدان) واتقوا الله فى أنفسكم واحذروا أن يحل بكم من العذاب مثل ما حل بهم ، فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته فيهم ، وقد جاء فى سورة هود والشعراء وفصلت ما يدل على ما كان لهم من قوة وجبروت وبطش شديد .

(فاذكروا آلاء الله نعلمكم تغفلون) أى فاذكروا نعم الله وفضله عليكم ، واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأصنام

لعلكم تفوزون بما أعدّه للشاكرين لنعمه ، الراجين للزيد منها ، وتذكرون الخلود والبقاء والنعيم الأبدى فى دار القرار .

ثم ذكر ما ردوا به عليه فقال :

(قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) يقال : جاء يعلم الناس كيف يحاربون ، وذهب يقيم قواعد العمران ، على معنى شرع يفعل ذلك .

والمعنى — أجبنا لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء وهم الوسيلة عنده ، وهم الذين يقرّبوننا إليه زلفى ، وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم .

وبعد أن استكروا التوحيد واحتجوا عليه بما لا يصلح عقلا ولا شرعا أن يكون حجة من تقليد الآباء والأجداد استعمالوا الوعيد فقالوا .

(فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك ، والعمل بما جئت به من التوحيد ، وإخلاص العباداة لله وحده — إن كنت صادقا فى قولك ووعدك .

فأجابهم هود على مقالتهم بقوله :

(قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى قال هود لقومه : قد قضى عليكم ربكم مالك أمركم بعذاب وطرده من رحمته ، وقد كان عذابهم ريحا صرصرا (ذات صوت شديد) عاتية تنزع الناس من الأرض ثم ترميهم بها صرعى (كأنهم أعجاز نخلٍ منقعة) أى قد قلع من منابته ، وزال من أماكنه .

(أنجادوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟) أى أنجادوننى فى أسماء وضعتوها أنتم وآباؤكم الذين قلدهم على غير علم ولا هدى منكم ولا منهم ، لمسميات اتخذوها فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقرّبكم إلى الله زلفى وتشفع عنده لىكم ، ما أنزل الله من حجة ولا برهان يصدق زعمكم بأنه رضى أن تكون واسطة بينه

وبينكم ، وكيف وهو الواحد الأحد الذى يصمد إليه عباده فى العبادة ، وطلب مالم يمكنهم بالأسباب العادية .

والخلاصة — إنه هو الذى يتوجه إليه وحده ، ولا يشرك معه أحد من خلقه كما قال إبراهيم : « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وكل ما يتعلق بعبادة الله لا يعلم إلا بوحي منه ينزله على رسله ؟ إذ لا يعلم إلا من عباده المبلغين عنه .

(فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أى فانتظروا نزول العذاب الذى طلبتموه بقولكم (فأتنا بما تعدنا) إني معكم من المنتظرين لنزوله بكم ، وفصل قضائه فينا وفيكم ، وإننى لموقن بذلك وأنتم مرتابون .

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) . أى فلما جاء أمرنا ووقع ما وقع — أنجيناه هودا والذين آمنوا به وبما دعا إليه من توحيد الله وهجر الأوثان — برحمة عظيمة منا ، واستأصنا دابر الذين جحدوا بآياتنا ولم ينق منهم أحدا بريح صرصر عاتية : « تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاجِدُهُمْ » .

قصص صالح عليه السلام

وَإِلَىٰ مُؤَدَّي أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُوبِهَا قُصُورًا

وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُيُوتًا ، فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا
لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ
بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)
فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)
فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) .

شرح المفردات

ثمود : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام إلى وادى
القرى ، سميت باسم جدِّهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وأخوة صالح لهم : أخوة
في النسب كأخوة هود لقومه ، والبينة : المعجزة الظاهرة الدلالة ، واذكروا أى تذكروا ،
وبوأكم فى الأرض أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ، والأرض : أرض الحِجْر بين
الحجاز والشام ، والنحت : نجر الشيء الصلب ، والعيث والعثى : الفساد ، استكبروا : عتوا
وتكبروا ، وعقروا الناقة : نحروها ، وأصل العقير الجرح ، وعقر الإبل : قطع قوائمها ، وكانوا
يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تثقل ، وعتوا : تمردوا مستكبرين ،
والعتو : التمرد ، والامتناع إِمَاعَنٌ عِجْزٌ وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا : إذا أسنَّ وكبر ،
وإِماعَنٌ قوة كعتو الجبارين والمستكبرين ، ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية
يمنتع جناها على من يريدھا إلا بمشقة التسلق والصعود ، الرجفة : المرة من الرجف
وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه ، ورجفت

الأرض: زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف ، ودار الرجل : ما يسكنها هو وأهله ، ويطبق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لاحتراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للابل .

الإيضاح

(و إلى ثمود أخاهم صالحاً) أى ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود أخاهم صالحاً .
 (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) أى قال صالح لثمود : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فما لكم من إله تعبدونه سواه .
 (قد جاءكم بينة من ربكم) أى قد جاءكم حجة وبرهان على صدق ما أقول وحقيقة ما أدعو إليه من إخلاص التوحيد له وإفراده بالعبادة دون سواه .
 وفي قوله : من ربكم ، إيماء إلى أنها ليست من فعله ، ولا مما ينالها كسبه . وهكذا سائر ما يؤيد به الله الرسل من خوارق العادات .
 وهذه المقالة كانت لهم بعد نصيحهم وتذكيرهم بنعم الله وتكذيبهم له كما جاء في سورة هود من قوله : « هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » إلى آخر الآيات .
 (هذه ناقة الله لكم آية) أضاف الناقة إلى الله تعظيماً لشأنها ، ولأنها لم تأت بنتاج معناد وأسباب معهودة ، ومن ثم كانت آية . وأى آية ؟
 وإنما استشهد صالح على صحة نبوته بالناقة ، لأنهم سألوه إياها آية دالة على صدق دعوته وصحة نبوته .

ثم ذكر ما يترتب على كونها آية أنه لا ينبغي التعرض لها فقال :
 (فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) أى إن الأرض أرض الله والناقة ناقة الله ، فاتركوها تأكل ما تأكل في أرض ربها ، وليس لكم أن تحولوا بينها وبينها ، ولا تتعرضوا لها بسوء في نفسها ولا في أكلها ،

فإنكم إن فعلتم ذلك أخذكم عذاب أليم ، وقد وصف في سورة هود بالعذاب القريب وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إليها بالسوء ، وكذلك كان ، وجاء في سورة القمر : « وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ » .

وجاء تفسير هذا في سورة الشعراء : « هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْنُومٍ » أى إن الماء الذى كانوا يشربون منه قسمة بينهم وبين الناقة ، إذ كان ماء قليلا ، فكانوا يشربونه يوما وتشرب هي يوما ، وقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا يستعيضون عن الماء يوم شربها بلبنها .

ثم ذكروهم بنعم الله عليهم وبوجوب شكرها بعبادته تعالى وحده فقال :
(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) أى وتذكروا نعم الله عليكم وإحسانه إليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد فى الحضارة وال عمران والقوة والبأس ، وأنزلكم منازلهم تتخذون من سهولها قصورا زاهية ، ودورا عالية ، بما ألهمكم من حذى فى الصناعة ، فجعلكم تضرعون الماين وتحرقونه أجرا (الطوب المحرق) وتستعملون الجص وتجيدون هندسة البناء ودقة التجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتا ، إذ علمكم صناعة النحت ، وآتاكم القوة والجلد .

روى أنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول فى باقى الفصول للزراعة والعمل .

(فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا فى الأرض مفسدين) أى وتذكروا هذه النعم العظام ، واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة ، ولا تتصرفوا فيها تصرف كفران ووجود بفعل ما لا يرضى الله الذى خلقها لكم ، فما بالكم بالكفر والعشى فى الأرض بالفساد .

(قال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون

أن صالحا مرسل من ربه ؟) قد جرت سنة الله أن يكون الفقراء المستضعفون أسرع الناس إلى إجابة دعوة الأنبياء والرسل ، وإلى كل دعوة لإصلاح ، فإنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وأن يكفروا بها أكابر القوم وأغنيائهم المترفون ، إذ يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين لسواهم ، كما يصعب عليهم الامتناع عن الإسراف في الشهوات ، والوقوف عند حدود الاعتدال .

وعلى هذا السنن سار الملا من قوم صالح إذ قالوا للمؤمنين منهم : اتعلمون أن صالحا رسول من عند الله ؟ ومرادهم بهذا التهمك والاستهزاء بهم .

(قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) أى إنا بما أرسل به صالح من الحق والهدى مصدقون ومقرون بأنه من عند الله ، وأن الله أمر به ، وعن أمر الله دعانا صالح .

وفى جوابهم هذا دون أن يقولوا - نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه ، أو إنا برسالته علمون - إيماء إلى أنهم علموا بذلك علما يقينيا إذعانيا له السلطان على عقولهم وقلوبهم وما كل من يعلم شيئا يصل علمه إلى هذه المرتبة ، بل من الناس من يعلم الشيء بالبرهان ، لكنه يجحده ويحاربه وهو موقن به حسدا لأهله ، أو استكبارا عنه كما قال تعالى : « وَجَعَلُوا بَيْنَهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغُورًا » .

(قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) أى قال الذين استكبروا عن أمر الله وأمر رسوله صالح : إنا بالذي صدقتم به من نبوة صالح وإن الذي جاء به هو الحق - جاحدون منكرون لانصدق به ولا نقر .

وإنما لم يقولوا إنا بالذي أرسل به صالح كافرون - لأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة ، فلو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بجحود الحق على علمهم به استكبارا وعنادا .

ثم ذكر ما فعلوه مما يدل على كفرهم بآيات ربهم فقال :

(ففعلوا الناقة) أى ففعل أولئك المستكبرون الناقة ، ونسب الفعل إليهم جميعا والفاعل واحد منهم كما جاء في سورة القمر : « فَتَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »

وجاء فى حديث البخارى مرفوعا «فانتدب لها رجل ذو عزة ومنعة فى قومه كأبى زمعة» لأنهم لما انفقوا عليه ورضوا به صاروا كأنهم فعلوه جميعا .

وفى ذلك تهويل وتفطيع لأمرهم ، وأن أضراره ستصيبهم جميعا ، ومثل هذا من الأعمال ينسب إلى الأمة فى جملتها ، وتعاقب عليه جميعها كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(وعتوا عن أمر ربهم) أى وتمردوا وتجبروا عن اتباع الحق الذى بلغهم صالح إياه ، وهو ما سلف ذكره .

روى أحمد والحاكم عن جابر قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر قال (لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخذ الله مَنْ تَحْتَ أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله — وهو أبو رغال — فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه) » .

(وقالوا يا صالح اثنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) الوعد يكون فى الخير والشر أى قالوا له : اثنتا بما وعدتنا به من عذاب الله ونقمته ، إن كنت رسولا إلينا ، وتدعى أن وعيدك تبليغ عنه ، فالله ينصر رسله على أعدائه ، فعجل ذلك لنا . (فأخذتهم الرجفة) وفى سورة هود « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ » وفى سورة حم السجدة « فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ » وفى سورة الذاريات « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » والمراد بالجميع الصاعقة ، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب ، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان .

وقد علم أن سبب حدوثها اتصال كهربائية الأرض بكهربائية الجو التى يحملها

السحاب ، فتحدث صوتا كالصوت الذى يحدث باشتعال قذائف المدافع ، وهذا الصوت هو المسمى بالرعد .

وتحدث الصاعقة تأثيرات عظيمة كصعق الناس والحيوان وهدم المباني أو تصديعها وإحراق الشجر ونحو ذلك ، وقد هدى العلم إلى الطريق فى اتقاء أضرارها بالمباني العظيمة بوضع ما يسمونه (مانعة الصواعق) .

وقد يجوز أن الله سبحانه جعل هلاكهم فى وقت ساق فيه السحاب المشبع بالكهرباء إلى أرضهم على حسب السنن المعروفة ، وقد يجوز أن الله قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيهما كان قد وقع ، فقد صدق الله رسوله وحدث ما أنذرهم به .

(فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى لم يلبثوا أن سقطوا مصعوقين جثثا هامة حين نزلت بهم الصيحة فى أرضهم .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) أى قال لهم صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متعسرا كما يقول المتحسر على من مات جانبا على حياته بالنفاق فى شهواته : ألم أنهك عما يوردك ريب المنون . ألم أحذرك تلك العاقبة الوخيمة التى لم تتداركها قبل وقوعها ، فإذا أفعل ، إذ فضلت لذة الساعات والأيام على عيش هنىء يدوم عشرات الأعوام .

وروى مثل هذا مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم من ندائه بعض قتلى قريش بيد بعد دفنهم فى القليب (البئر غير المبنية) .

« يا فلان بن فلان ، وفلان بن فلان : أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنما قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » قال راوى الحديث أبو طلحة الأنصارى : قال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟

أوفيهما — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » رواه البخارى وغيره عن طريق قتادة عن أبى طححة الأنصارى رضى الله عنه ، ثم قال : قال قتادة أحياء الله حتى أسمعهم قوله صلى الله عليه وسلم توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما اه . قال العلماء ومثل هذا مما اختص به الأنبياء . وبهذا الحديث ونحوه مما ورد من حياة الأنبياء والشهداء فى البرزخ ، يستدل زوار الأضرحة والقبور الذين يدعون أصحابها لقضاء حاجاتهم ويقولون : إن كل من دعا ميتا من الصالحين يسمع منه ويقضى حاجته ، قياسا على ذلك ، مع علمهم بأن الأمور الغيبية يقتصر فيها على ما سمع عن الأنبياء ولا يدخلها باب القياس .

قصص لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) .

شرح المفردات

نوط: هو لوط بن حاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ولد فى (أور الكلدانيين) فى الطرف الشرقى من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة

قورا ، وهناك كانت مملكة آشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ، ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ؟) أى واذا ذكر لوطا حين قال لقومه موبخا لهم : أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية في القبح والفحش .

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أى ما عملها أحد قبلكم في أى زمان ، بل هي من مبتدعائكم في الفساد ، فأنتم فيها أسوة وقدوة ، فتنبهون بأنمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة .

وفى هذا بيان لأن ما اجتروحه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة ، ومن ثم لم تتطلع إليه نفوس أحد من البشر قبلهم ، إلى ما فيه من مخالفة لهدى الدين .
(إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يراد بالإتيان الاستمتاع الذى عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين ، وداعيته الشهوة وقصد النسل .

وقد سجل عليهم هنا أنهم يبتغون الشهوة وحدها ، فهم أحسن من سائر أفراد الحيوان ، لأن الذكور منها تطلب الإناث بدافع الشهوة والنسل الذى يحفظ النوع ، ألا ترى أن الطيور والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء الأعشاش فى أعلى الأشجار أو الوُكُن فى قلل الجبال أو الأجنار فى باطن الأرضين ، ولكن هؤلاء المجرمين لا غرض لهم إلا إرضاء شهواتهم ، ومن يقصد اللذة وحدها دون النسل أسرف فيها وانقلب نفعها ضرا وصار خيرها شرا .

وفى هذا مزيد تقرير وتوبيخ لهم ، كأن ذلك لا ينبغى أن يصدر من أحد .

وفى قوله: من دون النساء ، إيماء إلى أنهم تجاوزوا النساء اللاتي هن محل الاشتباه عند ذوى الفطر السليمة إلى غيرهن .

(بل أنتم قوم مسرفون) أى إنكم لا تأتون هذه الفاحشة ثم تقدمون على ما فعلتم ، بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ولا تقفون فيها عند حد الاعتدال ، وقد جاء فى سورة النمل « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجَاهِلُونَ » أى أنتم ذوو سفه وطيث ، وفى سورة العنكبوت « أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ » .

وفى كل هذا دليل على أنهم كانوا مسرفين فى لذاتهم ، متعددين حدود العقل والفطرة ، لا يعقون ضرر ما يفعلون بمجانيبتهم على النسل والصحة والآداب العامة ، فهم لو عقلوا ذلك لاجتنبوها ، ولو كان لديهم شىء من الفضيلة لانصرفوا عنها .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) أى وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار وتلك النصيحة شيئا من الحجج المقنعة أو الأعذار المسكنة لثورة الغضب ، بل كان جوابهم الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريبتهم ، وما حجبتهم على تبرير ما عزموا عليه إلا أن قالوا إن هؤلاء أناس يتطهرون ويشتهرون عن مشاركتهم فى فسوقهم ورجسهم ، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم ، لما بينهم من الفوارق فى الصفات والأخلاق .

وهذا الجواب منهم يدل على منتهى السخرية والتهكم ، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظوهم : أبعدوا عنا هذا المتكشف ، وأريحونا من هذا المتزهد .

وقد بلغ من قبحهم وفجورهم أن يفعلوا الفاحشة ويفخروا بها ويحتقروا من يتنزه عنها ، وهذا أسفل الدركات ، ولا يهبط إليه إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .
(فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) يقال غبر أى بقى ، وغبر : ذهب

وهلاك ، أى فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه إلا امرأته ، فإنها لم تؤمن به ، بل خانتة بولاية قومه الكافرين ، فكانت من جماعة الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب فى الدنيا ، وبعده عذاب الآخرة .

(وأمطرنا عليهم مطرا) الإمطار حقيقة فى المطر مجاز فيما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يحيى من السماء أو من الأرض أى وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره وهو الحجارة التى رجوا بها ، وجاء فى سورتي هود والحجر إنها حجارة من سجيل مسومة أى معلمة ببياض فى حرة .

وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة وألقاها عليهم ، أو أن تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التى يسميها علماء الفلك الحجارة النيزكية وهى بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها ، وهى تحترق غايبا من سرعة الجذب وشدته ، وهى الشهب التى ترى بالليل ، فإذا سلم منها شئ من الاحتراق ووصل إلى الأرض ساخ فيها وكان لسقوطه صوت شديد ، وقد وجد الناس بعض هذه الحجارة ووضعوها فى دور الآبار .

(فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) أى فانظر أيها المعتبر هذا القصص وتأمله حق التأمل ، لتعلم عتاب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا العقاب أثر طبيعى لذلك ، فإنك ترى الترف والفسق يفسدان أخلاق الأمم ويذهبان ببأسها ويفرقان كلمتها ويجعلانها شيئا وأحزابا متعادية ، فيسلط الله عليها من يستذلها ويسبها استقلالها ، ويسخرها لمنافعه ، ولا يزال بها هكذا حتى تنقرض وتكون من الهالكين .

وقد يكون هلاكها بسنن الله فى الأرض من إرسال الجوائح كالزلازل والمواد المصطهرة التى نقذفها البراكين من الأرض ، أو بالأوبئة والأمراض الفتاكة ، أو بالثورات والفتن والحروب ونحو ذلك مما يكون سببا فى انقراض الأمم وفنائها .

وخلاصة القول فى تحريم هذه الفاحشة :

- (١) إنها مفسدة للشبان بالإسراف فى الشهوات .
- (٢) إنها مفسدة للنساء اللواتى ينصرف أزواجهن عنهن ويقصرون فيما يجب عليهم من إحصانهن .
- (٣) قلة النسل فإن من لوازم ذلك الرغبة عن الزواج والرغبة فى إتيان الأزواج فى غير مأتى الحرث .

وفى الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين للآخر بقصر لذة الاستمتاع عليه وجعل ذلك وسيلة للحياة الوالدية التى تنمى بها الأمة ويحفظ بها النوع البشرى من الزوال .

وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ، وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) .

شرح المفردات

يقال بخسه حقه أى نقصه ، والإفساد : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق والآداب : بارتكاب الإثم والفواحش ،

وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران المحسنة لأحوال المعيشة ، والصراف : الطريق ، وتوعدون : تخوفون الناس ، وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعبيا كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم ، فكثركم أى بما بارك في نسلكم .

المعنى الجملى

شعيب نبي من أنبياء العرب ، وفي التوراة إن اسمه رعوثيل ؛ فقد جاء في سفر الخروج أن حمى موسى كان يدعى رعوثيل .

(رعو : صديق ، وثيل : الله) أى صديق الله أى الصادق في عبادته ، وفي موضع آخر من سفر الخروج إن موسى كان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مدين ، ويثرون لقب وظيفته ، وهو من نسل إبراهيم .

وفي الفصل الخامس من سفر التكوين إن زوجة إبراهيم قطورة ولدت له ستة أولاد منهم مدان أو مدين أو مديان (معناه خصام) وكانت أرضهم تمتد من خليج العقبة إلى مواب وطور سيناء ، وفي رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء إلى الفرات .

وقال الألوسى : ومدين وسمع مديان علم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم سميت به القبيلة .

الإيضاح

(و إلى مدين أخاهم شعبيا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم) تقدم مثل هذا في قصة صالح عليه السلام ، ولكن هناك بين الآيات

بأنها النامة ، ولم يذكر هنا ولا فى أى سورة أخرى آية معينة لشعيب عليه السلام ، ولكن لا بد أن تكون له آية تدل على صدقه ، وتقوم بها الحجة عليهم .

فقد روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما شأها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » أى إن كل نبى مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله .

والبيضة كل ما يتبين به الحق ، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقائية ، والأمم القديمة لم تكن تدعن إلا لخوارق العادات .

وبعد أن أتى شعيب صلوات الله عليه بالمعجزات القاطعة للعدر ومكابرة الحق رتب على ذلك قوله :

(فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وقد ثنى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهى عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصى ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهى قومه عن الفاحشة السوءى التى كانت فاشية فيهم ، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المنكيات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه وإذا كالوهم أو وزنهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم .

والبخس يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالملابس والأشياء المعدودة ، ويشمل البخس فى المساومة والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، وفى الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل .

وقد فشا كل من هذين النوعين في هذا العصر ، فكثير من التجار باخسون مطلقون فيما يبيعون وما يشترون ، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة بخاسون لحقوق بنى جلدتهم ، مدعون للتفوق عليهم ، منكرون لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسدا عليهم و بغيا .

وقد روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ويقولون هذه زیوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخص أى بالنقصان .

(ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) أى إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، وبما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، وبما أرشد إنيهم المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط ، ويهدون الناس إلى مافيه صلاحهم فى دينهم ، والعاملين من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس فى دنياهم .

فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغى ولاعدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ، ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام وبث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها .

(ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهى خير لكم فى دينكم ودنياكم ، فإن ربكم لا يأمر إلا بالنافع ولاينهى إلا عن الضار . وإنما يكون ذلك خيرا لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله وبرسوله وبما جاءكم من شرع وبما آتاكم به من هدى ، فالإيمان يقتضى الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله وإن خالف النفس والهوى .

والمؤمن الموحد لا يخضع إلا لله ، وإنما يطيع رسوله لأنه مبلغ عنه كما قال :
 « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » وفي حديث أحمد بن خديج أن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال : « إنما أنا بشر مثلكم ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا
 أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » .

هذا والبشر لم يصلوا في عصر من العصور إلى عشر ما وصلوا إليه في هذا العصر
 من العلم بالمنافع والمضار ومعرفة المصالح والمفاسد في المعاملات والآداب ، ومع هذا فإن
 العلم وحده لم يغنهم شيئا ، فكثرت في البلاد الجرائم من قتل وسلب وإفساد زرع
 وفسق وخجور ونحو ذلك مما كان سببا في تدهور نظم المجتمعات .

فخير وسيلة لإصلاح الأمم تربية الأحداث والناطقة تربية دينية بإقناعهم بمنافع
 الفضائل كالصدق والأمانة والعدل ، وإقناعهم بمضار الرذائل ، لأن الوازع النفسى
 أقوى من الوازع الخارجى .

(ولا تتعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها
 عوجا) أى ولا تتعدوا بكل طريق تخوفون من آمن بالقتل ، وقد روى عن ابن عباس
 أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يتتارون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق
 ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم .

وقد رتب سبحانه هذه الأوامر والنواهى على حسب الترتيب الزمنى ، فوجهت
 الدعوة أولا إلى أقرب الناس فى بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب من الذين يزورون
 أرضهم ، وقد كان الأقربون داراً لهم الأبعدين استجابة له ، وحين رأوا غيرهم يقبل
 دعوته ويهتدى بها شرعوا يصدون الناس عنه فلا يدعون طريقا توصل إليه إلا قعد
 بها من يتوعد سالكيها إليه ، ويصدونهم عن سبيل الله التى يدعوهم إليها ، ويطلبون
 بالتبويه والتضليل أن يجعلوا استقامتها عوجا ، وهداها ضلالا .

والخلاصة -- إنه نهىهم عن أشياء ثلاثة :

(١) قعودهم على الطرقات التي توصل إليه مخوفين من يبيته ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

(٢) صدمهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

(٣) ابتغائهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالظعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة فها ، وهم بعماليهم هذا ارتكبوا ضلالين التقييد والعصية الآباء والأجداد ، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم الظعن في الأديان حتى بلغوا في ذلك حد الطغيان .

(واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) أى وتذكروا الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بما بارك فى نسلكم ، واشكروا له ذلك بعبادته وحده ، واتباع وصاياه فى الحق ، والإعراض عن الفساد فى الأرض . وقد روى أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرعى الله فى نسلها البركة والثناء فكثروا .

وقد يكون المعنى — إذ كنتم مقبلين قراء فجعلكم مكثرين موسرين — أو المراد : إذ كنتم أذلة قليلى العدد فأعزكم بكثرة العدد والعدد .

(وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح وعاد وثمود ، وكيف أهلكهم الله بفسادهم وبغيهم فى الأرض ، فاعتبروا بما حل بهم ، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

(وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) حكم الله بين عباده ضربان :

(١) حكم شرعى يوحىه إلى رسله ، وعليه جاء قوله فى سورة المائدة بعد الأمر بالوفاء بالعقود وإحلال بهيمة الأنعام : « إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » .

(٢) حكم فعلى يفصل فيه بين الخلق بمقتضى سننه فيهم كقوله في آخر سورة يونس : « وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » . والمعنى — وإن كان جماعة منكم صدقوا بالذي أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم في المكاييل والموازين ، واتبعوني في كل ذلك ، وجماعة أخرى لم يصدقوني وأصروا على شركهم وإفسادهم — فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل ، وأعدل من يقضى ، لتنزله عن الباطل والجور ، وليعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم وسيحل بهم مثل ما حل بأولئك على حسب السنن التي قدرها العليم الحكيم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

اللهم وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء في الثامن عشر من رجب المعظم سنة ثنتين وستين وثلثمائة هجرية .

وصل ربنا على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	المستهزئون بالقرآن
٩	الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
١٥	الأصل في عبادة الأوثان
١٧	حكم ترك التسمية حين الذبح
١٧	حكم ما يذبح لدى استقبال أمير أو وزير
٢٠	جرت سنة الله أن يكون في كل عاصمة زعماء مجرمون
٢٤	عذاب الأمم بذنوبها في الدنيا مطرد دون عذاب الأفراد
٢٩	أثبتت السنة الاتصال بين الإنسان والأرواح الشريرة كما أثبتت وجود الجرائم — الميكروبات
٣٢	الإسلام وضع مبدأ الشورى في مهام الأمور
٣٣	الجن عالم غيبي لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص
٣٥	هلاك الأمم يكون مما يغلب عليها من العصيان والفسوق
٣٩	أنار العلم في هذا العصر أمر البعث وقربه إلى العقول
٤٣	حكم العرب في التحليل والتحريم
٥١	تحريم التشريع لا يمكن أن يكون إلا لله
٥٧	أحلت لبناء قبتين ودمان
٥٨	ما حرم من الأنعام عقوبة على بني إسرائيل

الصفحة	المبحث
٦٦	الوصايا العشر التى أمر الرسول بتلاوتها على المشركين
٨٠	تمادى المشركين فى تكذيب الرسول وعدم الاعتداد بما معه من الآيات
٨٣	أهل الكتاب فرقوا دينهم وجعلوه شيعاً
٨٤	أسباب التفرق فى الدين فى هذه الأمة
٨٦	من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها
٨٩	الدين القيم هو ملة إبراهيم لآما يدعيه أهل الكتاب والمشركون
٩٠	المؤمن حياته لله ومماته لله
٩٢	سعادة الناس وشقاؤهم بأعمالهم فحسب
٩٣	إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
١٠٠	بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للدين داخل فيما أنزل علينا
١٠٦	الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
١١١	معاذير إبليس فى عدم سجوده لآدم عليه السلام
١١٣	هل الجنة التى هبطها آدم بستان أو هى جنة الجزاء
١١٩	الشیطان أوهم آدم وزوجه أن الأكل من الشجرة يقتضى الخلود
١٢٢	العقاب أثر طبيعى للذنوب
١٢٦	فعل الجنة فى أرواح البشر كفعل الميكروبات فى الأجسام
١٢٩	معاذير المشركين فى عمل الفاحشة
١٣٣	وجوب الزينة للعبادة
١٣٦	الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة
١٣٧	أصبح المسلمون من أجهل الشعوب لسنن الله فى الأكوان
١٤٠	الاجتهاد خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته
١٤٣	الأجل المقدر بمقتضى نظام الخلق هو العمر الطبيعى

الصفحة	المبحث
١٥٣	ينزع الغل والحسد من قلوب أهل الجنة
١٦١	يعرف الجرمون بسيماهم يوم القيامة
١٦٣	يغاث الجرمون بالضرير الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع
١٧٠	الأيام الستة التى كانت حين انخلق
١٧١	السموات والأرض كانتا سديماً
١٧٢	ما ورد فى الخلق من الأسرأئيليات لا يعول عليه
١٧٥	الدعاء خفية أفضل من الدعاء جهراً
١٧٧	الاعتداء فى الدعاء على ضرور
١٨٠	طلب الله الإحسان فى كل شىء
١٨١	أسماء الرياح لدى العرب
١٨٤	الحياة فى عرف العرب ولدى علماء الطبيعة
١٩٩	استدل العلماء على نظام مناوبات الرى بقوله تعالى : لها شرب ولكم شرب يوم معلوم
٢٠١	أسباب رجفة قوم صالح
٢٠٢	نادى النبي صلى الله عليه وسلم بعض قتلى قريش بيدى بعد دفنهم فى القليب
٢٠٤	ما فعله قوم لوط لم يفعله أخس أنواع الحيوان
٢٠٦	الفسق والفجور يفسدان أخلاق الأمم
٢٠٧	السبب فى تحريم فاحشة قوم لوط
٢١٢	نهى شعيب قومه عن ثلاثة أشياء
٢١٢	حكم الله بين عباده ضربان